الآداب الاجنبية

مجلة فصلية يصدرها اتحاد الكتاب العرب

العدد ٤٢ شتاء ١٩٨٥ السنة الثانية عشرة

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

العدد ٤٢ شتاء ١٩٨٥

الآداب الأجنبية

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

« الآداب الاجنبية »

مجلة فصلية تصدر كل ثلاثة اشهر تعنى بنشر المواد المترجمة من الادب العالمي في مجالات الشعر والقصة والمسرحية وغيرها من صنوف الادب الابداعي وكذلك في مجالات النقد والبحث الادبي.

* توجه جميع المراسلات باسم رئيس التحرير .

* يرجى من الاساتذة الذين يرسلون مواد مترجمة بغية النشر في المجلة ان يرفقوها بالاصل الاجنبي وان يذكروا المرجع بوضوح .

* يرجى من الاساتذة المترجمين عدم التصرف في النصوص والعناية بصحة العبارة العربية .

* المواد التي تتلقاها المجلة لا ترد لاصحابها سواء نشرت ام لم تنشر .

الاشتراك السنوي

في الجمهورية العربية السورية :

- للافراد والدوائر الرسمية ٢٤ ل . س

في البلاد العربية :

- البريد العادي ٣٦ ل . س

في البلاد الاجنبية :

- البريد العادي ١٢٥ ل . س

تضاف تكاليف الطائرة في حالة الاشتراك بالبريد الجوي .

المراسلات

باسم رئيس التحرير

الادارة

اتحاد الكتاب العرب

دمشق – اوتستراد المزة

ص . ب ٣٢٢

هاتف ٨١٦٢٩٩

= ٨١٦٣٢٩

المحتوى

المحتوى

● القصة

● المرصد الادبي

كلمة التحرير

في نهاية عام ١٩٨٤ دخلت مجلة (الآداب الأجنبية) مرحلة مهمة من التعاون الدولي مع نظيرتيها مجلتي (الآداب الأجنبية ـ فسيسفيت) الأوكرانية و (الآداب الأجنبية ـ أنوستر انايا ليتر اتورا) في موسكو .

فقد استقبلت المجلة في دمشق الرفيق ميكتنكو ، نائب رئيس المجلة الأوكرانية ، وهو صديق لسورية والعرب ، ومهتم بالمنطقة العربية قديماً وحديثاً ، وولده يفجيني مستشرق ألف كتاباً لطيفاً عن (ألف ليلة وليلة) ، وقد سعدت المجلة والاتحاد بزيارته ، وجرى تداول برامج غنية للتعاون بين المجلتين ، أهمها البدء بتعريف قراء كل جانب بالمجلة التي يصدرها الجانب الآخر ، وكمثال لهذا التعاون يرى القارىء في العدد الحالي مقالة عن (فسيفيت) كتبها الزميل ميكتنكو . ومن المأمول أن تفتح هذه العملية آفاقاً خصبة للتبادل والعمل المشترك .

كما قام رئيس تحرير (الآداب الأجنبية) السورية بزيارة إلى الاتحاد السوفييتي في كانون الأول ١٩٨٤ بدعوة من مجلة (أنوستر انايا ليتر اتورا) في موسكو . وقد هيأ الأصدقاء السوفييت كل ما من شأنه أن يجعل هذه الزيارة ناجحة ومثمرة من جهة ، ومعبرة ، من جهة أخرى ، عن حقيقة الروابط الودية العميقة التي تربط الكتاب السوفييت بالكتاب السوريين بوجه خاص والكتاب العرب بوجه عام ، وهي روابط تتم في إطار من الصداقة السوفييتية ـ العربية السورية ، شامل ومتين وضارب الجذور في التاريخ .

وقد كشفت جلسات المباحثات مع الأصدقاء السوفييت عن استعداد غير مشروط للتعاون ، وعن اهتمام أصيل بالأدب العربي في سورية والثقافة العربية بوجه عام في ماضيها وحاضرها ، وذلك من خلال النهج السوفييتي المعروف بالاهتمام بالتراث الإنساني وبآداب الشعوب المكافحة ضد الإمبريالية وضد الظلم والاستغلال ، وفي سبيل سلام عالمي قائم على العدل والتفاهم بين الشعوب .

ومن المأمول أن تظهر تدريجياً نتائج خصبة لهذا التعاون ، وأن تستمر حلقاته من خلال تبادل الزيارات والخبرات والترجمات .

وقد كان لزيارة رئيس التحرير للاتحاد السوفييتي جانب مكمل للجانب الأدبي هو الجانب الإنساني والشخصي ، ومن خلال تفاعل هاتين الناحيتين يقدم رئيس التحرير (لقطات من زيارته للاتحاد السوفييتي) يجدها القارىء منشورة في هذا العدد ، ولا يخفى على القارىء أن هذه اللقطات كتبت على طريقة (أدب الرحلات) ، ونظر إلى مسائل كثيرة من خلال لقطات فردية تفصيلية هدفت أحياناً إلى التشويق أو الدعابة ، ويجب أن تفهم كلها في سياق الصداقة السوفييتية ـ العربية السورية وفي سياق التعاون المزدهر بين أهل الفكر والأدب والفن في كلا البلدين .

وكذلك في سياق التقدير الصميمي لمنجزات الاتحاد السوفيتي في مختلف المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتقنية وسواها .

كانون الأول ١٩٨٤

الدكتور حسام الخطيب

دراسات

بيرسي بيش شيللي ١٧٩٢ - ١٨٢٢
موجز حياته وأعماله مع نبذ مختارة من شعره

• د. أحمد مضر الصقال

حول الأسس البيولوجية للطاقات اللغوية

تقديم وترجمة: د. مازن الوعر

أدريان هنري: شاعر شعبي من ليفربول

• د. سليمان محمد أحمد

بيرسي بيش شيلي[1]

موجز حياته وأعماله مع نبذ مختارة

من شعره ١٧٩٢ - ١٨٢٢

• د. أحمد مُضر الصّقال

حياته وأعماله :

مقدمة :

موهبة شديدة التنوع ، والاتساع ، والعمق ، والحيوية ، ولعل مجموعات الأشعار الطويلة والقصيرة التي كتبها ، لن تضاهى من حيث التنوع ، في أشكالها وأساليبها ، ومن حيث الغنى بالخيال ، والرمزية .

ولكن شيلي ، لم يكن شاعراً فقط ، بل كان روائياً ، وكاتب مقالات ، وفيلسوفاً يبحث عن الحقيقة ، كما كان مثالياً أحب الجنس البشري ، ومصلحاً وقف ضد كل خطأ وجده في الأفكار الشائعة في السياسة والدين ، والفكر ، والعادات .

السنوات الأولى :

* الطفولة والتعليم :

ولد بيرسي بيش شيلي في ٤ آب عام ١٧٩٢ ، في ميدلسكس ، أما

(١) Percy Bysshe Shelley.

والده السير تيموثي شيللي[٢] فواحد من أغنى أصحاب الأراضي ، وعضو في البرلمان .

وقد أحس شيللي بتميزه منذ الطفولة ، كما شعر باختلافه عن غيره بشكل قوي ، وكثيراً ما قال عن نفسه أنه روح سجين .

درس في أكاديمية سيون في ميدلسكس ، مع ابن عمه توماس ميدوين[٣] ثم قضى ٤ سنوات في معهد أتون حيث لقب (شيللي المجنون) ، وفي عام ١٨١٠ قبل في معاهد جامعة أوكسفورد .

* أوكسفورد والأعمال الأولى :

صادف شيللي في أول أمسية له بقاعة الطعام في المعهد ، تلميذاً اسمه توماس هوج[٤] ، وهو ابن محام لا يمارس المهنة ، وقد أعجب كلاهما برفيقه ، وأمضيا أوقاتهما معاً لدرجة الانزواء عن الآخرين ، وكان هوج يصف نفسه بأنه : « رجل قدماه على الأرض ويحب شيللي » .

وقد كتب شيللي حتى ذلك الوقت رواية قوطية قصيرة (زاسترزوسي)[٥] ١٨١٠ ، ومجموعة أشعار اسمها (الأشعار الأصلية لفيكتور وكازير)[٦] (شيللي وأخته اليزابيت) ١٨١٠ ، وكذلك رواية قرطبة ثانية (القديس ايرفين)[٧] ١٨١١ .

---

(٢) Timothy Shelley.

(٣) Thomas Medwin.

(٤) Thomas Hogg.

(٥) Zastrozzi.

(٦) Original Poetry by Uictor cazire.

(٧) St. Irvyne.

سعد شيلي بحريته ، وكان يرى أن ٤ سنوات هي وقت قصير غير كاف للقراءة ، والدراسة ، والاطلاع لذا فقد فوجيء بفصله وهوج من المعهد في ٢٥ آذار ١٨١١ بعد أن رفضا الإجابة على أسئلة وجهت لهما حول كتيب بعنوان (ضرورة الإلحاد)[٨] كانا قد أرسلاه سراً إلى الأسقف ، وإلى رئيس الأساقفة ، وإلى عمداء الكليات . وبالإضافة إلى فصل شيللي من المعهد ، بسبب أفكاره ، فقد فسخت ابنة عمه خطوبتهما في عطلة الميلاد السابقة ، بعد الاطلاع على أفكاره في الرسائل التي كان يكتبها ، وبذلك فقد عانى شيللي من فقد حبه الجاد الأول .

في ٢٦ آذار غادر شيللي ، وهوج الجامعة إلى لندن ، ولكنهما افترقا ، بعد إصرار شديد من والديهما ، وبعد أن وضع شيللي شروطاً خاصة على والده .

وانقطع حبل الود بين الأب وابنه ، ثم انقطعت كل علاقة بينهما بعد فرار شيللي مع هارييت وستبروك[٩] وزواجه بها ، ولم يتصل الأب بابنه بعد ذلك ، إلا عن طريق محاميه في لندن ، كما عاش بعده ٢٢ عاماً ، لكنه لم يسامحه أبداً ، ولم يفخر بشهرته المطردة الذيوع .

*** زواجه من هارييت وستبروك :**

كانت هارييت فتاة جميلة عمرها ستة عشر عاماً ، وفي نفس مدرسة أختي شيللي ، وقد تعرف بها شيللي ، فأعجبت بأفكاره ، وآرائه الراديكالية ، ومنحته الصحبة والتشجيع اللذين كان بحاجة إليهما ، وقد أحبها شيللي ، وهرب معها إلى ادنبرة ، حيث عقدا قرانهما حسب القانون الاسكتلندي في ٢٩ آب ١٨١١

---

(٨) The Necessity of Atheism.

(٩) Harriet Westbrook.

وزارهما هوج هنـاك ، ثم استضـافهـما لديه في يورك ، حيث كان يدرس القانون ، وعندما أوقف والد شيللي اعتماد شيللي في المصرف ، سافر الأخير في محاولـة لتـدبـر المـال ، تاركـاً هاريبت عند هوج ، وقد حاول هوج اغتصابها ، فأخـبرت شيللي ، وغـادرا المـدينـة على الفـور ، مع الـزا شقيقة هاريبت التي استدعتها هي .

سنوات في منطقة البحيرات :

استقـر شيللي ، وعـائلتـه في منطقـة البحـيرات ، آمـلاً بلقـاء الشعـراء الأكـبر : (وورد زورث[١٠] ، وكـولـردج[١١] ، وسـاوثي[١٢] وقـد قابل ساوثي ، فوجد أفكاره غير متحررة ، كما اعتقد عند قراءة شعره .

وتعـرف على بيكـوك[١٣] ، الـذي أصبح من أقرب أصدقائه ، وحمله فيما بعد على دراسة الكتاب الكلاسيكيين ، كما كتب إلى الفيلسوف وليام غودوين[١٤] ، ١٨١٢ ، معرفاً بنفسه ، وأخبره أنه قرأ كتابه (استفهامات حول العدالة السياسية)[١٥] ، وتأثر بأفكاره كثيراً . وقد تعرف عليه ، ووجد الأخير في شيللي صفقــة رابحـة ، إذ استـدان منه مبالـغ كبـيرة ، كان شيللي بدوره يستدينها من المرابين .

وقـد زار ويلز ، وايـرلنـدا ، ودعا لإعطاء الإيرلنديين حرية فسخ معاهدة

---

(١٠) Wordsworth.

(١١) Coleridge.

(١٢) Southey.

(١٣) Peacock.

(١٤) William Godwin.

(١٥) Aninquiry Concerning Political justice.

الـوحـدة مع بريطـانيـا العظمى ، وخـلال هذه الفترة ، ازداد نضج شخصيته كرجـل ، وكشـاعر ، وأنهى ديوانه (الملكة ماب)[١٦] ، أحد أكثر دواوينه تعبيراً عن أفكاره ، ولم يجرؤ ناشر على طبع هذا الديوان ، لذا طبعه بشكل خاص ، ووزعه لأصدقائه .

شب الخلاف بين شيللي ، وهاريت ، وتفاقم ، وفي ٢٨ تموز ١٨١٤ ، هرب مع ماري غودوين ، ابنة الفيلسوف غودوين ، وكان معهما كلير كليرمـونت[١٧] ، ابنـة زوجة غودوين من زوج سابق ، وقد عادوا بعد ٦ أسابيع لنفـاد ما معهم من المـال ، وتنقلوا بين عدة منـازل ، واختبأ شيللي فترة لتفادي التـوقيف ، بسبب ديـونـه ، (التي أعطى معظمهـا لغـودوين) ، وفي ذلـك الـوقت ، ولـدت ماري ابنهما شارل . ورغم كل هذه الحوادث العاصفة ، فقد كان وماري سعيدين بحبهما ، وتحسن الوضع المادي ، بعد وفاة جده ١٨١٥ ، حيث وفي معظم ديونه ، وبقي له دخل سنوي مقداره ١٠٠٠ جنيه .

في نهايـة صيف ١٨١٥ ، أبحـر بالقارب ، في نهر التايمز حتى ليكليه ، وبعـد عودتـه من الرحلة النهرية ، كتب أول أشعاره العظيمة فعلاً ، (الاستور أو قرين الوحدة)[١٨] ، ورغم أن بعض أشعاره التالية ، هي أعظم ، لكن ولا واحـد منهـا أجمـل . ويلاحظ أن هذا الشعر المرسل ، متأثر بميلتون[١٩] ، وورد زوورث ، لكنه شيللّي الروح بكل تأكيد ، ويلاحظ فيه غنى النغم اللفظي ، والخيـال ، والاستعـارات ، والـرمـوز التي تختلف بشكـل كبير عن (الملكـة ماب) ، والتي أصبحت أسلوبه في التعبير . كما أدخل شيللي هنا أهم مواضيع

---

(١٦) Queen Mep.

(١٧) Claire Clairmont.

(١٨) Alastor, or the Spirit of Solitude.

(١٩) Milton.

شعـره : الـرؤيـة والملاحقـة[٢٠] ، وقـد كرره مع إضـافـات عديـدة في (أدونيس)[٢١] ، و (انتصـار الحيـاة)[٢٢] ، و (تراتيـل إلى الجمال الذكي)[٢٣] وفي (التكريس) من (ثورة الإسلام)[٢٤] .

في عام ١٨١٦ سافر إلى شواطىء بحيرة جنيف بسويسرا ، حيث تعرف على اللورد بايـرون[٢٥] ، ونشأت بينهـما علاقـة حميمـة ، وولـد ابنـه الثـاني من ماري : ويليـام ، ولكن كلير كليرمـونت حملت من اللورد بايـرون ، وأنجبت ابنة أسماها أليجرا[٢٦] .

وعنـدمـا عاد شيللي إلى انكلترا ، تبـين أن هاربيت قد أغرقت نفسها ، فحزن حزناً شديداً ، وزاد ألمه عندما منعه اللورد شانسلور من أخذ ولديه .

وقد تزوج من ماري غودوين ، في كنيسة ميلدرد ، بوجود والدها .

كان جيمس هنت[٢٧] ، قد كتب كتـابـاً عن الشعراء الشبان : كيتس[٢٨] وشيللي ورينـولـدز[٢٩] ، وقـد شجع هنت صفات شيللي التحررية ، الشخصية

---

(٢٠) Vision Pursuit.

(٢١) Adonais.

(٢٢) The Triumph of Life.

(٢٣) Hymn to Intellectual Beauty.

(٢٤) The Dedication of The Revolt of Islam.

(٢٥) Lord Byron.

(٢٦) Allegra.

(٢٧) James Hunt.

(٢٨) Keats.

(٢٩) Reynolds.

والشعرية ، ودافع عن شعره وأفكاره ، وأسلوبه الشعري ، وأصبح صديقاً حميماً لشيللي بل إن شيللي اعتبره أعز أصدقائه .

ظل شيللي مدة طويلة يرغب في شراء منزل ، وفي الاستقرار ، وقد حقق هذا مرة واحدة ، إذ اشترى منزلاً في مدينة صغيرة ، وفرشه ، وقد استمرت سكناه فيه سنة واحدة ، هنا كان شيللي وماري يقرآن لبعضهما ، بصوت مرتفع في الأمسيات ، وهنا أحس شيللي بالتأثير الكامل للكلاسيكيات مما دفعه للتفرغ لها بشكل تام . وهنا وضعت ماري (تاريخ رحلة ستة أسابيع)[٣٠] ، وكتبت كتابها المشهور (فرانكشتاين)[٣١] ، طبع سنة ١٨١٨ ، وفي الشهور الستة الأولى كتب شيللي أطول أشعاره (لاون وسيتنا)[٣٢] ، الذي غير اسمه فيما بعد إلى ثورة الإسلام ١٨١٨ ، وهنا ولدت طفلتهما كلارا .

ولكن لم يكن الزوجان سعيدين تماماً ، حيث كانا ، وخاصة ماري يعانيان من ضيق وارتباك لوجود كلير كليرمونت ، مع ابنة بايرون ، وكان وضعها كآنسة تربي ابنة شخص آخر (كما ادعوا) غير معقول . وقد غادروا انكلترا إلى فينيسيا ، في آذار ١٨١٨ وقابلوا اللورد بايرون الذي رضي بأخذ الطفلة ليربيها كابنته ، ولكن على أساس ألا شأن له بوالدتها .

لحق بشيللي ناشره ، كي يجري بعض التعديلات في (لاون وسيثنا) ، وتتألف هذه التعديلات من : تغيير صلة القرابة بين لاون وسيثنا من أخ وأخت إلى لاون ويتيمة يحبان بعضهما ، ويشتركان بنفس الأفكار عن الحرية وتخفيف حدة بعض التعابير الفاضحة حول الإله . وقد غير العنوان إلى (ثورة الإسلام) كعنوان أكثر ملاءمة .

---

(٣٠) History of asix Weeks Tour.

(٣١) Fran Kenstein.

(٣٢) Laon Cythna.

تتألف القصيدة من مقاطع شعرية سبنسرية ، وتجمع بين مواضيع (الملكة ماب) و (قرين الوحدة) ، محب الجنس البشري ، والشاعر الذي يموت شاباً . وقد قال شيللي في رسالة لغودوين أنه كتب الرسالة باندفاعة رجل ميت . وكان هدفه العام أن يقول لمعاصريه أنهم لا يجب أن يقنطوا لفشل الثورة الفرنسية ، حيث أنها ليست إلا واحدة من الثورات المتعددة ، التي يجب أن تقوم ، قبل أن يتم تغلب الخير في العالم على الشر .

لقد كان في القصيدة فيض زائد من الغموض ، والخيال الطبيعي ، ويظهر أن شيللي لم يكن في أفضل أوضاعه كشاعر قصصي ، ولكن في جزء كبير من القصيدة ، يظهر قوة وتنوعاً أكثر من أي مؤلف آخر .

سنوات إيطاليا :

توقفت العائلة في ميلانو ، كومو ، بيزا ، وأمضت شهراً في ليجهورن ، وقد أرسلت أليجرا إلى بايرون من ميلانو ، مع إحدى خادماتهم .

رغم أن كلير كانت ذات أهمية في حياة شيللي ، فقد تعقدت علاقتها مع بايرون ، بحيث أصبح حذفها منذ ذلك الوقت ضرورياً ، ويجب ملاحظة : أولاً أن شيللي كان دائماً شديد الحب لكلير ، التي عاشت معظم الوقت في منزله ، وثانياً أنها كانت خيالية ، وعصبية ، وعاطفية بشكل شديد ، أي كانت مناقضة تماماً لماري ، لذا لم يكن من الممكن أن تعيشا معاً سعيدتين ، وقد طلبت ماري من شيللي أحياناً أن يعمل على تأمين سكن كلير في مكان آخر . وثالثاً أن شيللي اضطر أن يكون وسيطياً بين كلير وبايرون ، وهو واجب مؤلم ، استطاع شيللي أن ينجح فيه بكثير من التعقل ، والتفهم ، والدقة .

وقد حمل قلق كلير على أليجرا شيللي أن يسافر إلى فينيسيا ليقابل بايرون ، في حين بقيت هي في بادوا ، وقد سر بايرون بلقائه ، ومنحه فيلته

الكابوشيني في ايست للسكن ، فكتب شيللي إلى ماري طالباً منها المجيء إلى هناك فوراً ، وقد أجابت طلبه ، لكن طفلتها كلارا ماتت نتيجة ذلك ، وقد لامت ماري سراً شيللي وكلير لهذه الفاجعة . وقد أدت العلاقات المتوترة بينهما ، والبرود الطارىء عليها إلى تغيير شيللي لمجموعة من أشعاره ، ومنها (سطور كتبت في التلال اليوجينية)[٣٣] والتي وصفها شيللي بكلماته : « أكثر أشعاري حزناً أتذكرها في تلة واحدة » ، ولن تعود ماري فتكون الألف الأليف ، والزوجة اللامعة ، التي خاطبها في (التكريس) من (ثورة الإسلام) ، ولم تلحظ ماري حتى وفاة شيللي كم أصبحت تمثل بالنسبة له (شعاع القمر البارد) وكان ندمها شديداً ، كما يظهر من قصيدتها (الاختيار)[٣٤] .

حدثت أشياء أفضل في ايست ، حيث كتب شيللي أول فصل من (بروميثيوس طليقاً)[٣٥] ، ودخل فترة أعظم إنجازاته كشاعر .

قضى شيللي وأسرته الشتاء في نيبال ، حيث تجولوا في بومبي ، سورنتو ، جبل فيزوف ، وزاروا المتاحف ، وقد كتب شيللي رسائل سفر رائعة إلى بيكوك ، ولكن بقيت روح الإبداع كامنة لدى شيللي ، فلم ينتج شيئاً آخر ، وعادت روح الإبداع له ثانية ، في روما من آذار لتموز ١٨١٩ ، وبين الآثار المتبقية من حمامات كاراكالا كتب الفصلين الثاني والثالث من (بروميثيوس طليقاً) وبدأ في (سنسي)[٣٦] . لكن سوء الحظ لم يفارق شيللي ، حيث توفي ابنه بعمر ٣ سنوات ، ودفن فيما هو الآن القسم القديم من المقبرة

---

(٣٣) Lines Written Amony The Euganean Hills.

(٣٤) The Choice.

(٣٥) Prowetheus Unbound.

(٣٦) The Cenci.

الإنكليـزيـة البر وتستانتية ، التي قال شيللي فيها مرة أن جمالها : « قد يوقع المرء في حب الموت » .

في تموز غادروا رومـا ، فأمضـوا الصيف في مونتنـيرا ، حيث أنهى شيللي (سنسي) بسرعة فائقة ، وذهبوا إلى فلورنسة في تشرين الثاني ، حيث ولدت ماري ابنـاً سميـاه (بيرسي فلورنسة) ، وهو ابنهما الوحيد الذي بقي على قيد الحيـاة ، وبقـوا هنـاك حتى آخر كانون الثاني ١٨٢٠ ، وانتقلوا إلى بيزا حيث اجتمـع حولهم مجمـوعـة من الإنكليـز ، والإيـرلنـديـين ، والإيطـاليـين ، واليونانيين ، وانضم لهم بايرون في تشرين الثاني ١٨٢١ .

وقد دفع موت أليجرا ابنة بايرون في نيسان ١٨٢٢ عائلة شيللي ، وعائلة ويليام ، لبدء تصييفهم على الشاطىء ، بشكل فوري ، وباكر ، لإبعاد كلير قبل أن تسمع بفقدها المريع . وسكنوا في فيللا على شاطىء سبيزيا في ٨ نيسان .

الوفاة :

أبحـر شيللي في ١ تموز في يخته الأنيق مع ويليـام ، إلى ليجهـورن ، ليستقبـل هنت وزوجتـه وأولاده ، ويسـاعـدهم على الوصول لفيلا بايرون في بيزا ، ويقوم ببعض الترتيبات العملية مع بايرون ، فيما يتعلق بـ (الحر)[٣٧] ، وهي دوريـة رغب بايـرون في إصدارها ، واستدعى هنت ـ عن طريق شيللي ـ إلى إيطـاليـا ليطبعهـا . وفي رحلة العـودة ، في ٨ تموز ، هبت عاصفـة أغرقت القارب ، وغرق شيللي وويليام .

وقد قام تريلوني (أحد أصدقائه في بيزا) باستعادة الجثة ، وأحرقها على الشـاطىء ، ثم أرسـل الـرمـاد إلى رومـا للدفن في القسم الجـديـد من المقبرة

---

(٣٧) The Liberal.

البر وتستانتية ، وعندما زارها استاء منها ، فاشترى قطعة أرض أمام الحائط الروماني القديم ، وسوّرها ، وزينها بشجر السرو والغار وبنى فيها ضريحين ، نقل رماد شيللي لأحدهما واحتفظ بالآخر لرماده .

وقد قررت ماري بعد وفاة زوجها أن تفرغ حياتها لتنظيم ، وحفظ وطبع مخطوطات شيللي ، ولكتابة سيرته الشخصية . وفي عام ١٨٢٤ ، طبعت (أشعار ما بعد الوفاة)[٣٨] ، وقد منع السير تيموثي والد شيللي الطبعات التالية حتى عام ١٨٣٩ .

الأعمال الناضجة :

لم يؤلف شيللي خلال السنوات التي قضاها في إيطاليا فقط أشعاره العالمية المعروفة (إلى قبرة)[٣٩] و (قصيدة إلى الريح الغربية)[٤٠] ، و (السحاب)[٤١] ، ولكن أيضاً مجموعة من الأشعار الضخمة ، حيث تكمن عظمته الحقيقية ، وهي :

روزالند وهيلين[٤٢] (١٨١٧ - ١٨ - ١٨١٩) .
جوليان ومادالو[٤٣] (١٨١٤ - ١٨٢٤) .
بروميثيوس طليقاً (١٨١٨ - ١٩ ، ١٨٢٠) .
ساحرة الأطلس[٤٤] (١٨٢٠ ، ١٨٢٤) .

---

(٣٨) Posthumous Poems.

(٣٩) Toaskylark.

(٤٠) Ode to the west Wind.

(٤١) The Cloud.

(٤٢) Rosalind & Helen.

(٤٣) Julian & Maddalo.

(٤٤) The Witch of Atlas.

أوديب الطاغية[٤٥] (١٨٢٠) .

ابيسيكيديون[٤٦] (١٨٢١) .

أدونيس (١٨٢١) .

هيلاس[٤٧] (١٨٢١ ، ١٨٢٢) .

انتصار الحياة[٤٨] (أجزاء ١٨٢٢ ، ١٨٢٤) .

التواريخ هي لتأريخ التأليف والطباعة

بروميثيوس طليقاً :

دراما غنائية ، وهي أعظم أشعاره ، ويعتقد كثيرون أنها أعظم قصيدة طويلة في الإنكليزية ، منذ (النعيم المفقود)[٤٩] لميلتون .

وهي أسطورة حديثة ، قيمة في زمن عالم الفلك ، مثلما كانت الأسطورة القديمة ، كما عالجها المؤلف الدرامي اليوناني أسخيلوس ، قيمة في زمن تأليفها .

ورغم أنها يمكن أن تقرأ كقصة ممتعة ، لكنها في أجزائها ، وككل ، رمز محكم لانتصار مبدأ الخير الكلي (بروميثيوس) على مبدأ الشر الكلي (جوبيتر) .

---

(٤٥) Oedipus Tyrnnus.

(٤٦) Epipsychidion.

(٤٧) Hellas.

(٤٨) The Triumph of Life.

(٤٩) Paradise Lost.

ويغيب عن كثير من القراء عالمية الموضوع ، لأن لد سبقاً معرفة بر وميثيوس كرجل ذي فكر إنساني ، وكبطل للجنس البشـ إنه كذلك بالطبع ، لكنه أكثر : إنه بطل الآلهة أيضاً ، وبطل كل ما هو جيد .

إن القصيدة تهدف أن تثبت في الذهن (المثاليات الجميلة للأخلاق الممتازة) من خلال الخيال والقلب ، وليس من خلال المنطق .

وإن تنوع وجمال الأشكال الشعرية ، لا يوجد ما يقاربه في مكان آخر . وقد وصف الفصل الأخير وكتب كنوع من التفكير التالي في كانون الأول ١٨١٩ ، كأعظم تفجر غنائي في الشعر .

سنسي :

وهي مختلفة بشكل مدهش عن (بروميثيوس طليقاً) ، وهي أعظم مأساة لتلك الفترة ، والعمل الوحيد لشيللي الذي طبع طبعة ثانية في أثناء حياته ، وبالإضافة لذلك فهي العمل الوحيد الذي يتعامل فيه شيللي مع أشخاص حقيقيين . وإن الأسلوب المباشر ، العاصف غير المزوق ، والشخصية النبيلة لبياتريك ، ووحشية سنسي ، هي تباين حاد مع الزخرف الفني للشخصيات الأثيرية في (بروميثيوس طليقاً) وغيرها من أشعاره .

كتب شيللي المسرحية للمسرح ، وكان من الممكن أن تستقبل بسرور ، لو لم يجعل موضوع الفسق بمحرم ، عرضها للجماهير مستحيلاً في أيامه .

لقد تعلم شيللي كثيراً عن الإنسان كما هو ، وعن أساسيات الأسلوب والبناء الدرامي . وقد شجعت ماري شيللي أن يبحث عن التقبل الجماهيري بأشياء أخرى مثل (سنسي) ، وقد سخر شيللي منها بلطف في (ساحرة الأطلسي) .

ابيبسيكيديون :

تعتبر عادة كأعظم شعر في الحب بهذه اللغة ، ومن الواضح أن شيللي كان يخطط لقصيدة عن حياته الروحية ، حين عرف وعائلته بفتاة إيطالية جميلة تدعى تيريزا فيفياني[٥٠] ، متحمسة ، شاعرية فلسفية ، في التاسعة عشرة من عمرها ، وضحية ظلم الأهل ، وأبوها نبيل وحاكم بيزا ، وضعها في دير حتى يتمكن أن يعثر لها على زوج .

وقد انطلق شعر شيللي ، وتغير اتجاهه ، حيث شعر أنه عثر أخيراً على المرأة الكاملة ، تجسداً للعذراء الملثمة في (ألاستور أو قرين الوحدة) ، للجمال الذكي .

والشعر الذي كتبه شيللي في حالة تخدير تقريباً ، يتألف من ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول يخاطب اميليا ، ويتضمن في سطور بسيطة ، وفصيحة مبادئه في الزواج والحب الحقيقي .

الجزء الثاني يتابع حياته الروحية ، وهو أكثر أشعاره إظهاراً لموضوع الرؤية والملاحقة . وهو يختلف عن ألاستور ، بأن الشاعر الآن لا يتابع رؤية الجمال الذكي ، لكن يتابع واحداً بين الناس ، يجسد الميزات الأساسية لهذه الرؤية المقدسة . إنها تجارب تجري مع واحدة (كانت لمستها مثل سم كهربائي) وأخريات ، حتى أنقذته ماري التي آزرته وقت مقاساته من انتحار هارييت ، ثم جاءت اميليا ، الفتاة الكاملة . وفي مقطع جميل ، مستعار من ميلتون ، يشبه شيللي نفسه بالأرض التي يتحكم فيها (كرتا الضوء التوأم) الشمس والقمر (اميليا وماري) .

والجزء الثالث فيه دعوة إلى اميليا ، لتعيش معه في فردوس أرضي ،

(٥٠) Teresa Emiresa Emilia Viviani.

على جزيرة يونانية منعزلة .

وفي بعض الأبيات المتضمنة ، يرسل شيللي شعره كدعوة لأصدقائه ، ليشاركوه في نظام اجتماعي كامل ، يحكمه المنطق ، وأعلى مثاليات الحب .

لقد ابتدع شيللي كلمة ابيبسيكيديون ، وشرحها في شعره على أنها : « تلك الروح الخارجة من روحي » .

ومع القصيدة يجب قراءة مقطوعته النثرية (عن الحب) التي تعطي نظرته الأوسع حول الحب . ويجب ملاحظة أن القصيدة هي في ثنائيات على التفعيلة ، وهي خماسية التفعيلة ، وتتحرك بسرعة ، وانسياب نادري المثال .

أدونيس :

يعتبرها شيللي أكثر أشعاره كمالاً .

حينما سمع شيللي بوفاة كيتس ، في روما (**٢٣ شباط ١٨٢١**) هزه ذلك بعمق ، ليس بسبب الزوال الجسدي لصديق فقط ، بمقدار ما كان بسبب الفقد الباكر لشاعر عانى الإهمال والإساءة ، مثلما عانى شيللي نفسه .

وفي تأمل متمهل للشكل الملائم لإظهار هذا الفقد ، اختار شيللي المرثاة الرعوية الكلاسيكية . ورغم أنه اتبع البناء المتوارث ، واستخدم التفصيلات المقترحة من الشعراء الكلاسيكيين (خاصة ميلتون في ليسيداس)[٥١] ، بشكل واضح ، فقد كون شيللي قصيدته من **٥٥** مقطعاً شعرياً سبنسرياً[٥٢] بانفعال محموم في الأيام الأولى من حزيران ، وفيها بذل كل فنه ، وقد طبعت في بيزا تحت إشرافه الشخصي ، إذ قرر أن يقدم للجمهور ، قصيدة خالية من

---

(٥١) Lycidas.

(٥٢) Spenserian Stanzas.

الإصلاح ، ومن الآراء السياسية ، الدينية ، والاجتماعية المخالفة لهم ، وحين ظهر أن النقد ظل متبلداً تجاهه ، ومثلما كان دوماً ، كان شيللي شديد الامتعاض ، لحد أنه وجد محالاً أن يكتب ثانية لمدة ليست بالقصيرة .

والأبيات التالية ، هي بداية الأجزاء الأربعة للقصيدة ، حيث الجزء الرابع إضافة للبناء التقليدي :

البيت الأول : إنني أبكي أدونيس ، فهو ميت ! / أواه ، أندب أدونيس .

البيت الثامن عشر : انعكاسات على الحياة والموت ، موت الشتاء ، وتجدد الحياة ، الفرح ، وجمال الربيع .

البيت ٣٨ ـ ٣٩ : الغبار يؤول للغبار ! لكن الروح النقية ، سوف تسري عائدة إلى النبع الذي جاءت منه . .

السلام ، السلام ، إنه ليس ميتاً ، إنه لا ينام / لقد أفاق من حلم الحياة .

البيت ٤٧ : من يبكي على أدونيس ؟ أواه ، أقبل / أيها المحب التعس ! واعرف نفسك ، واعرفه بشكل تام ، إن الحقيقة مدفونة ضمن اللحد .

هيلاس :

كتبت بمناسبة اندلاع الثورة اليونانية (١٨٢١) ، ورغم أن شيللي سماها مجرد (ارتجال) إلا أنها أكثر من ذلك ، وأن ثلاثة من أناشيد الكورس فيها مشهورة .

انتصار الحياة : (جزء فقط)

وكانت القصيدة الكبرى الأخيرة لشيللي ، وهي متأثرة بـ (انتصارات)[٥٣] لبترارك[٥٤] ، خاصة (انتصار الحب) وتعكس الفلسفة التي ظهرت أولاً في (أدونيس) بأن العالم المسمى الحقيقي هو عالم الوهم ، ويؤكد أن الجميع هم ضحايا الحياة ، ما عدا سقراط والمسيح .

ورغم أن القصيدة ، تتوقف بتلك الصرخة المتقدة لكل حياته (إذن فما هي الحياة ؟) إلا أنها لا تترك القارىء دون أمل . وثانية فإن موضوع الرؤية والمتابعة ، يجعل الشخص يحس بوجود المثال ، ويدفعه لملاحقته ، حتى لو كان خلف اللحد .

لا يجب أن ننسى أن شيللي كتب كمية كبيرة من النثر ، وفيها شرح أفكاره بوضوح أكثر من شعره ويظهر (نظرة فلسفية في الإصلاح) (١٨١٩ - ٢٠ ، ١٩٢٠) ، طريقة معقولة للإصلاح العملي .

ومعظم نثره مجتزءات ، وحتى (تحدي الشعر) الشهير ، ليس إلا أول جزء من مخطط لثلاثة أجزاء ، ومن ناحية قوة التحليل ، وجمال التعبير ، فإن (التحدي) لا يضاهى ، ولسوء الحظ فهو لم يطبع حتى عام ١٨٤٠ .

ورغم تعطش شيللي للشهرة ، فإن شعره لم يستطع أن يصبح شائعاً ؛ لأنه يخاطب (الخيال شديد النقاء ، لطبقات مختارة من قراء الشعر)

---

(٥٣) Triumphs.

(٥٤) Petrarch.

نبذ مختارة من شعره :

١ - فلســـفة الحب

تمتزج الينابيع بالنهر
وتختلط الأنهار بالمحيط . .
وتظل رياح السماء تمتزج إلى الأبد
بانفعال حلو ، وجميل . .
في كل العالم لا يوجد شيء وحيد
كل الأشياء تظل تمتزج
واحداً مع الآخر وفق قانون إلهي
لماذا لا نتعانق نحن ، أنت ، وأنا ؟ . .

انظري الجبال تقبل السماء العالية
وكذلك تعانق الأمواج بعضها
ولن يغفر لأي زهرة أخت
إذا تكبرت على أخيها
هذا ضوء الشمس يحتضن الأرض
وشعاع القمر الفضي يقبل البحر
ولكن ماذا تساوي كل هذه القُبَل
إذا أنت لم تقبّليني . . ؟ . .

٢ - نحيب

آه أيها العالم . . آه يا حياة . . آه يا زمن . .

أيها الزمن الذي أتسلق آخر درجاته . .
مرتعشاً في نفس المكان الذي كنت أقف فيه من قبل ثابتاً
متى يعود بهاء فجرك ؟
لن يعود ـ أواه لن يعود أبداً ! . .

خارج الليل والنهار
طارت البهجة وخلفتني
في الربيع النضر ، والصيف ، والشتاء الجلف
أيتحرك قلبي الضعيف بأسى . . ولكن بإشراق
لن يتحرك ـ أواه لا لن يتحرك بإشراق أبداً

إني أخاف قبلاتك أيتها العذراء اللطيفة ،
أما أنت فلا يجب أن تخافي من قبلاتي
إن روحي شديدة العمق ، مشحونة بالعاطفة
بحيث لن تستطع قط أن ترهق روحك

إنني أخاف صورتك ، أخشى أغانيك ، أرهب حركاتك .
أما أنت فلا حاجة بك إلى خوفي
طاهر حب قلبي
الذي أقدس به قلبك

الموسيقى . . عندما تموت الأصوات المخملية
تتردد في الذاكرة . .
الروائح العطرة ، حين تمرض البنفسجات الحلوة
تعيش في الإحساس الذي استثارته
أوراق الورد ، حين يموت الورد

تجمع من أجل سرير الحبيب
وكذاك أفكارك عندما تمضين
الحب بنفسه سوف يغفو عليها

٣ ـ حلم الشاعر

على شفاه شاعر غفوت . .
حالماً مثل حب رائع . .
في الصوت الذي تحبسه أنفاسه
لا يبحث أو يجد من أجل سعادة أرضية
لكنه يعيش على قبل أثيرية
من أشكال تلازم قفار الأفكار . .
إنه سيتأمل من الفجر حتى الإظلام . .
ضوء الشمس المنعكس في البحيرة
والنحلات الصفراء في اللبلاب المزهر
لا يهتم أو ينظر إلامَ هذه الأشياء تكون
ولكنه من هذه المخلوقات يستطيع
أن يبدع مخلوقات أكثر واقعية وجوداً من الإنسان الحي
إنها أطفال الخلود

٤ ـ تحليق الحب

عندما يحطم المصباح
يقع الضوء في التراب ميتاً

عندما تتبدد الغيمة
يختفي بهاء قوس قزح
عندما يكسر العود
لا تعود النغمات الحلوة تذكر
وعندما تسكت الشفتان
سرعان ما تنسى اللهجة المحبوبة

كما أن الموسيقى والبهاء
لا تبقى بعد العود والمصباح
لا يعطي صدى القلب
أي أغنية عندما تكون الروح خرساء
لا أغنية عدا بعض المراثي الحزينة
مثل عواء الريح في غرفة خربة
أو مثل صوت الأمواج الباكية . .
التي تقرع جرس جنازة البحار الميت . . .

عندما تمتزج القلوب مرة
يغادر الحب أولاً العش المتين البنيان
ويبقى الضعيف ليتحمل بمفرده
ما كان يملكه ذات يوم
أيها الحب . . ! الذي يندب
ضعف كل الأشياء هنا ،
لماذا تختار الأكثر وهناً وضعفاً
من أجل مهدك ، منزلك ، وتابوتك ؟ . .
سوف تهزك عواطف الحب

كما تهز العواصف العقبان في الأعالي
المنطق الناصع سوف يهزأ بك
كما الشمس تهزأ من سماء شتائية
سوف تتعفن جميع الأخشاب
في عشك الخرب ، ومنزل النسر ، منزلك
سوف يتركك عرياناً ليضحك
عندما تساقط الأوراق ، وتهب رياح باردة

٥ ـ سطور إلى هواء هندي

أفقت من أحلامي بك
في أول غفوتي الحلوة بالليل
بينما تتنفس الرياح بلطف ،
وتضيء النجوم ، وتشع ،
أفقت أنا من أحلامي بك . .
وقادتني روح في قدمي
ومن يدري كيف حصل ذلك ؟
إلى نافذة غرفتك ، حلوتي !

النسمات المتنقلة تتهاوى
على الظلمة ، الجدول الساكن
أشداء الزنبق تناثرت
مثل خواطر حلوة في حلم . . .
وشكوى الهزار . .
قد ذاب فيها قلبه

كما يجب أن أذوب فيك . .
أيها المحبوب كما أنت . .

أواه . . ارفعيني عن الأعشاب
إنني أموت . . . أضعف ! أقع ! . . .
دعي حبك في قبل قطرات المطر
يأتي إلى شفتي ، وإلى جفوني الشاحبة ،
إن وجنتي باردة وصفراء . . واأسفاه
قلبي يدق عالياً وبسرعة
آه . . اضغطيه . . اجذبيه لقلبك ثانية
حيث سوف يتكسر . . حين تأتي نهايته

٦ - إلى القمر

هل أنت شاحب من التعب
من تسلق السماء ، والتحديق إلى الأرض
والتجوال دون صاحب
بين النجوم ذات المولد المختلف عنك
ودائم التغير ، مثل عين غير فرحة
لا ترى شيئاً يستحق التوقف عنده

طائر جلس يندب ألفه الميت
على غصن شتائي
تزحف فوقه الريح الصقيعية
والجدول المتجمد بالأسفل

لم يكن هناك ورقة على عرى الغابة
ولا زهرة على الأرض
ليس إلا حركة طفيفة في الهواء
ما عدا صوت دولاب الطاحون

٨ - أوزيماندياس المصري

قابلت رحالة من أرض أثرية
قال لي : تنتصب في الصحراء
ساقان ضخمتان من صخر ، دون جسد
وقربهما فوق الرمال ، يوجد
وجه محطم نصف غريق ،
يدل عبوسه ، وجعدة شفته
وهزء الأمر البارد فيها
بأن النحات قرأ هذه الانفعالات بصدق
والتي بقيت ، راسمة على هذه الأشياء الميتة
اليد التي صنعتها ، والقلب الذي غذاها
وعلى القاعدة تظهر تلك الكلمات :
« اسمي أوزيماندياس ، ملك الملوك ،
انظر لأعمالي ، أيها الجبار ، واليائس ! »
لم يبق شيء حواليه ، أبداً
وحول خرابة هذا الحطام الضخم ، تمتد عارية ، ودون حدود
الرمال الوحيدة ، والمستوية . . تمتد بعيداً

٩ ـ ترتيلة إلى روح الطبيعة

يا حياة الحياة إن شفتيك تشعلان
بحبهما ، النفس الذي يمر بهما
وبسماتك قبل أن تغيب
تحيل الهواء البارد ناراً ، ثم تخبئها
في تلك الأقفال ، حيث من نظرها
أغمي عليه ، واقعاً في شراك متاهاتها

يا طفلة الضياء ، أطرافك تلتهب
خلال الغطاء الذي يظن أنه يخبئها
مثلما خيوط الصباح المشعة
عبر النجوم الرقيقة ، قبل أن تجزئها
وهذا الجو الإلهي يحيط بك
في كل مكان تشعين به

جميلة الأشياء الأخرى ، لا أحد يلاحظك
لكن صوتك يبدو منخفضاً وحنوناً
مثل أجملها ، لأنه يحفظك ٠
من النظر ، ذلك البهاء السائل ،
وكلهم يشعرون ، لكنهم لا يرون
كما أشعر الآن ، أنهم يفقدونه للأبد .
يا سراج الأرض ! حيثما تحركت
تكتسيُ الأشكال الباهتة لمعاناً
وتتحرك الأرواح التي تحبينها

فوق الرياح حرة خفيفة
حتى تسقط كما أسقط أنا الآن
دائخة ، ضائعة ، لكن غير آسفة

- ١٢ -

كلمة واحدة تنتهك بشكل أكثر
علي من أن أنتهكها
إحساس واحد يزدري خطأ بشكل أكثر
عليك من أن تزدريه
أمل واحد شديد الشبه باليأس
بحيث لا تكبح جماحه الحكمة
والشفقة منك أكثر غلاوة
عندي من شفقة غيرك

لا أستطيع أن أمنحك ما يسميه الناس الحب
لكن هل ترفضين
التقديس الذي يرفعه قلبي
ولا ترفضه السماء :
رغبة الفراشة بالنجوم
والليل بالغداة
الانقطاع لشيء أبعد
من محيط آلامنا

١٠ ـ أبيات كتبت في ديجيكشن قرب النيبال

الشمس دافئة ، والسماء صافية
والأمواج ترقص سريعة ولامعة ،
والجزر الزرقاء ، والجبال الثلجية
ترتدي ضوء الظهيرة الأرجواني الشفاف . .
أنفاس الهواء الرطب رائقة
حول براعمه غير المتفتحة
والأصوات الفرحة ، مثل الأصوات الأخرى ،
الرياح ، والطيور ، ومد البحر
وحتى صوت المدينة ناعم كما في العزلة

رأيت أراضي (ديب) التي لم تطأها قدم
ويتبعثر فيها تبغ البحر الأخضر والقرمزي ،
رأيت الأمواج ترتمي على الشاطىء
مثلما يومض الضوء الذائب في إشعاع النجوم
جلست وحيداً على الرمال
ووميض تيارات المحيط
يلمع حولي ، وهناك نغمة حلوة
تصدر من حركته المحسوبة بدقة ،
كم هذا جميل ! وهل يقاسمني أي قلب انفعالي ، الآن .

وا أسفاه ، ليس لدي أمل ، ولا صحة ،
لا سلام بنفسي ، ولا هدوء حولي . .
ولا الرضى الذي يناله الحكيم من التأمل

ويراه متفوقاً على الثروة
وأمشي بعظمتي الذاتية ، والتي تكافأ :
لا شهرة ، لا قوة ، لا حب ، ولا سرور ،
التي أراها تحيط بآخرين
يبتسمون لأنهم يعيشون ، ويقبلون على مسرات الحياة
لكن بالنسبة لي ، فقد ملىء هذا الكأس بأسلوب آخر . .

ومع ذلك حتى اليأس نفسه ضعيف الآن
وإنني ، كما الرياح والمياه
أستطيع أستلقي كطفل تعب
وأبعد عني حياة الهموم
التي تحملتها ، والتي يجب أن أحتملها
حتى يأتي الموت ـ كالنوم ـ ليسرقني
وربما أحسست في الهواء الدافىء
بوجنتي تبرد ، وسمعت البحر
يتنفس فوق دماغي الميت آخر حركاته الرتيبة

المراجع والمصادر

* موجز حياته ، وأعماله ، مأخوذ بتصرف عن : الانسيكلوبيديا بريتانيكا ١٩٧٥ (الجزء ١٦)

Encyclopedia Britannica (Vol. 16).

* نبذ مختارة من شعره : الكنز الذهبي ١٩٦٥ (فرنسيس بالجريف)

The Golden Treasury 1965 (Francis Turner Palgrave)

رقم القصيدة	رقم القصيدة في الكنز الذهبي
١	١٨٥
٢	٣٠٧
٣	١٧٩
٤	٣١٣
٥	٢٩٩
٦	١٩٥
٧	١٧٦
٨	٢٧٥
٩	٢٧٥
١٠	٢٥١
١١	٢٨١
١٢	٢٠١
١٣	٢٢٧

حول الأسس البيولوجيّة للطاقات اللغويّة

تقديم وترجمة: د. مازن الوعر

مقدمة :

تعتبر الدراسات اللسانية البيولوجية من الحقول المهمة في المعرفة العلمية الحديثة في الغرب والشرق . وتأتي أهمية هذه الدراسات من العلاقات التجريدية المكبتة التي تربط الفاعليات البيولوجية اللغوية بالفاعليات البيولوجية الأخرى في الدماغ البشري .

والواقع تحاول الدراسات والمناهج العلمية الحديثة معرفة طبيعة هذه العلاقات وفلسفتها فلسفة تجريبية علمية قائمة على المواد والعينات المرئية التي يمكن لها أن توصل العلماء إلى العمليات الجارية في الدماغ ، تلك العمليات التي لا يمكن رؤيتها على الإطلاق .

يشكل عنوان هذا البحث (On the Biological Basis of Language Copacities) فصلاً من مقدمة كتاب كان ألفه عالم اللسان الأمريكي نعوم تشومسكي أستاذ علم اللسانيات الحديث في معهد ماستوسمتس للتكنولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٠ وعنوان هذا الكتاب هو (Rules and Representations) ونعيد نشر هذا الفصل مترجماً بتصرف إلى العربية وذلك بإذن من المؤلف . هذا وقد نوقش هذا البحث في الدورة العالمية السابعة للسانيات المنعقدة في جامعة محمد الخامس بالرباط ـ المغرب ما بين ٢٨ تموز و ٢٠ آب ١٩٨٢ .

إن النظريات والمناهج البيولوجية اللغوية التي تدور مناقشاتها في عالم اليوم ستثمر بلا شك نتائج نظرية مهمة يمكن أن تطبق في مجالات لغوية عديدة[1] . وبما أن علم اللسان البيولوجي يرتبط ارتباطاً عضوياً بعلم النحو التوليدي والنحوية ولا سيما في نظريته الأخيرة التي وضعها عالم اللسان الأمريكي نعوم تشومسكي عام ١٩٨١ والمسماة بـ Government and Binding Theory أو : (نظرية العامل والربط الإحالي) ، فإنه من المهم حقاً معرفة طبيعة هذه العلاقات القائمة بين الأسس البيولوجية وبين الطاقات اللغوية العاملة عليها . هذه العلاقات البيولوجية اللغوية كان قد شرحها وفصّلها نعوم تشومسكي في دراسات وبحوث كثيرة كان قد كتبها .

والواقع ، يعتبر هذا البحث الذي نحن بصدد تقديمه وشرحه من ضمن البحوث اللسانية البيولوجية المهمة التي كان قد قام بها تشومسكي ، لذلك من المفيد للقارىء العزيز أن يعرف شيئاً ما عن هذه البحوث الجديدة والحديثة ولا سيما وأن علم النحو التوليدي والنحوية قد بدأ يأخذ مكانه في العالم العربي على الرغم من أنه ما زال يُقدّم بشكله الكلاسيكي ، ونعني بذلك النموذج الذي وُضع عام ١٩٥٧ والنموذج المعياري الذي وُضِع عام ١٩٦٥ ثم النموذج

---

(١) لمزيد من الاطلاع على هذه الأهداف النظرية والتطبيقية لعلم اللسان البيولوجي يمكن للقارىء الرجوع إلى مقالتين كان قد كتبهما صاحب هذه السطور مستفيداً من البحوث والدراسات البيولوجية الأمريكية ولا سيما الدراسات والبحوث التي قام بها عالمان مهمان في هذا الحقل وهما ايريك لينبرغ ونعوم تشومسكي . وعنوان المقالة الأولى هو(علم اللسان البيولوجي) مجلة المعرفة السنة التاسعة عشرة العددان ٢٢٢ ـ ٢٢٣ آب وأيلول ١٩٨٠ ص ٤٧ ـ ٦٥ ، أما عنوان المقالة الثانية فهو(رجعة أخرى إلى علم اللسانيات البيولوجية : سبر للتجربة الأمريكية) .

مجلة المعرفة السنة التاسعة عشرة العددان ٢٢٥ ـ ٢٢٦ . تشرين الثاني كانون الأول ١٩٨٠ ص ٤٧ ـ ٧٥

المعياري الموسَّع الذي وُضع عام ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢[1] .

وينبغي عليّ أن أذكـر في هذا المجـال بأنني لم أتـرجم هذا البحث ترجمـة حرفيـة بل لقـد ترجمتـه بتصـرف وذلك لصعوبة كتابات تشومسكي من جهة ثم لصعـوبـة المصطلح اللغـوي من جهـة أخرى . من هنـا كان العنوان : تقديماً وشـرحـاً . بالإضـافـة إلى ذلـك ، فقد لجأت إلى تقسيم البحث إلى عناوين رئيسية تسهّل على القارىء عملية القراءة . . وهكذا فقد قسَّمت البحث إلى الموضوعات التالية :

١ ـ مدخل .

٢ ـ المنهج البيولوجي اللساني للعالم الأمريكي ايريك لينبرغ .

٣ ـ مقارنة بين الدراسات البيولوجية للغة وبين الدراسات الفيزيائية للفلك .

٤ ـ مقارنة بين الدراسات اللسانية وبين الدراسات النفسية .

أ ـ الدراسات اللسانية البيولوجية وطبيعتها العلمية التجريبية .

ب ـ ما بين تشومسكي ومدرسة جنيف النفسية .

---

(١) من المفيـد أن نذكـر في هذا المجـال بأن مترجم هذا البحث كان قد تقـدّم برسالة للدكتـوراه تدور حول تعـديـل آخـر نظـرية وضعها نعوم تشومسكي عام ١٩٨١ وهي نظرية العـامـل والـربـط الإحالي Government and Binding Theory تعديلاً نحوياً ودلالياً معتمداً بذلك على نظريتين اثنتين ، الأولى هي النظرية العربية النحوية والدلالية التي كان وضعها النحاة والبلاغيون العرب القدامى . والثانية هي النظرية النحوية والدلالية التي كان وضعها عالم اللسان الأمريكي ولتر كوك Walter Cook . والغاية من ذلك هي الخروج بنظرية نحوية ودلاليـة حديثـة وواقعية لشرح الأنظمة والروابط اللسانية في الجمل العربية والاستفادة منها في النواحي النظرية .

(Toward A Modern and Realistic Sentential Theory of Basic Structures in Standard Arabic) (1983). Georgetown University. Washington D. C.

جـ ـ ما بين تشومسكي والمدرسة النفسية الروسية

٥ ـ نتائج وإرهاصات منهجية .

وأخيراً . . أحب أن أشكر عالم اللسان الأمريكي نعوم تشومسكي الذي كان لفت انتباهي إلى مثل هذه الدراسات والبحوث القيمة وذلك من خلال حوار لغوي كنت قد أجريته معه[1] ، ثم لسماحه لي بترجمة هذا البحث ، كما أحب أن أشكر الدكتور عبد القادر فاسي منهري أستاذ علم اللسانيات الحديث، في جامعة محمد الخامس بالرباط لتفضله بقراءة هذا البحث واقتراحه عدة مصطلحات لغوية نافعة ومفيدة . .

مازن الوعر

١ ـ مدخل

إن عنوان هذا البحث ـ كما هو معروف ـ مأخوذ من الدراسة البيولوجية لعالم اللسان البيولوجي إيريك لينبرغ Eric Lenneberg تلك الدراسة التي ظهرت عام ١٩٦٧ والتي تعدّ اليوم واحدة من الدراسات الكلاسيكية في هذا الحقل .

لقد كرس لينبرغ حياته كلها لدراسة اللغة التي اعتبرها ، (فاعلية من الفاعليات البيولوجية الطبيعية للإنسان) وقد أراد أن يدرسها (دراسة تشريحية تشبه الدراسات التشريحية الأخرى للجسم البشري) .

إن الهدف من هذه الدراسة هو بعث المفهوم البيولوجي للطاقات اللغوية وإرجاعه إلى مكانه الطبيعي في الدراسات اللسانية وذلك من خلال شرح

(١) لمعرفة الحوار اللغوي الذي أجراه صاحب هذه السطور مع عالم اللسانيات الأمريكي نعوم تشومسكي يمكن للقارىء الرجوع إلى مقالتنا (حول بعض القضايا الجدلية لنظرية النحو التوليدي والتمويه) المنشورة بالعربية والإنكليزية والفرنسية في مجلة اللسانيات التابعة لمعهد العلوم اللسانية والصوتية بجامعة الجزائر المجلد رقم ٦ عام ١٩٨٤

الفـرضيـات المتعلقة بهذا المفهوم البيولوجي من جهة ثم توضيح هذه المفهومات من جهـة أخـرى بحيث يمكننـا أن نضعها تحت مجهر الفحص والتدقيق . فإذا كان ذلك كذلك فإنه يمكننا أن نعتبر الطاقة اللغوية عضواً فيزيائياً من أعضاء الجسم البشري ثم يمكننا في الوقت نفسه أن ندرس المبادى الفيزيائية التي يقوم عليهـا النظـام العـامـل في ذلـك الجسم وعـلائقهـا بالمبـادىء اللغوية المختصة بالفصائل الإنسانية وحدها .

والـواقـع أنني أشعر بشكل شخصي أن هذا المنهج البيولوجي اللغوي هو الطريق الصحيح الذي يمكن للدراسات اللسانية الحديثة للغة أن تسير عليه .

٢ ـ المنهج البيولوجي للعالم الأمريكي إيريك لينبرغ

أودّ باديء ذي بدء أن أشير إلى بعض القضايا المتعلقة بالمنهج البيولوجي اللغـوي الـذي كان وضعـه وطـوره إيـريك لينبرغ مركزاً النقاش على قضيتين مهمتـين تدوران حول طبيعـة الأسـاليب التي يمكننـا من خلالهـا سبر الظاهرة البيولوجية اللغوية .

لقـد لاحـظ لينبرغ أن « القواعد التي تشكل النحو الكلي بما فيه العملية الفهميـة والعمليـة الكلامية . . إنما هي قواعد ذات صفات محددة جداً » فهذه القـواعـد هي التي تصـوغ ما تصوغ من الجمل والتراكيب اللغوية الأخرى من خلال نظام محدد ودقيق ، من هنا فإن التحليل المنطقي والشكلي للمادة اللغوية سيكـون ناقصـاً تمامـاً إذا لم يلتفت العـالم اللسـاني إلى هذه القـواعد العاملة في الـذهن البشـري ، بل إن نتـائجـه ستكـون اعتبـاطيـة تعسفيـة غير صحيحة ومقبـولـة . وبعبارة دقيقة إن ما نعني (بالقواعد العاملة في الذهن البشري) ، هو الأجهزة أو الأنظمة الدينامية الداخلية ذات الصفات البنيوية المحددة ، لقد لاحظ لينبرغ من خلال دراساته البيولوجية اللغوية أن السؤال الجوهري في أية

دراسة بيولوجية لغوية ينبغي أن يكون كالتالي :

« ما هي طبيعة الادعاء القائل بفطرية السلوك اللغوي الوراثي وغريزيته ؟ » .

الواقع علينا أن نفترض بشكل تجريبي ملاحظ وجود أنسجة بيولوجية ذات صفات معينة والتي بدورها تحدد الفاعلية الناتجة عن العضو الجسمي العامل عليها ، وهذا بالطبع وعلى حد تعبير لينبرغ ، سيعمق معرفتنا بطبيعة الأنسجة البيولوجية المخبأة والمستترة .

إن المشكلة المهمة هنا هي استطاعتنا تحديد الأفعال المدركة الناتجة عن تلك الأنسجة البيولوجية وذلك ضمن شروط بيئية محيطة . والحقيقة لقد أكّد لينبرغ الجانب التجريبي الملاحظ لمثل هذه الدراسات البيولوجية اللغوية . من هنا فإنه ليس هناك أي مجال في هذا الحقل لمفاهيم تزمتيّة دوغمائية غير مستندة على أدلة تجريبية صحيحة وتامة ، لقد أدرك لينبرغ أن مهمة علم البيولوجيا هي معرفة الكيفية التي يتم من خلالها صياغة الأشكال اللغوية المختلفة للبنية الفطرية الغريزية في الذهن البشري . وهذا بالطبع سيلقي عبئاً آخر على علم البيولوجيا ذلك العبء المتعلق بالوصف الدقيق لردود الفعل الإنسانية تجاه الظواهر والقوى المحيطة بالإنسان . إن دراسة هذه الردود الإنسانية لن تقود بالضرورة لإثبات البنية الفطرية الغريزية الوراثية . والواقع يعتبر اكتشاف البنية الوراثية وفاعلياتها العاملة في الذهن البشري عملاً تجريبياً مخبرياً يمكن له أن يكون جزءاً لا يتجزأ من المعرفة العلمية الحديثة .

والحقيقة عندما قابلت إيريك لينبرغ منذ خمسة وعشرين عاماً فإنني قد شعرت تماماً أن كل هذه الاهتمامات البيولوجية الأساسية كانت تأخذ حيزاً كبيراً من تفكيره وعمله . إن ما كان يهدف إليه لينبرغ هو أن يرى الدراسة اللغوية أو

ما يسمى الآن بـ (علم اللسـان) فرعـاً من العلوم الطبيعيـة المعروفة في العصر الحـديث . فقـد كرّس لينـبرغ كل جهـوده لوضـع الفاعلية اللغوية في نسيجها البيولوجي الطبيعي ثم دراستها دراسة طبيعية علمية حديثة .

وهكذا فإذا أخذنا بوجهة النظر البيولوجية اللغوية هذه ، فإنه ينبغي على دراسـة الأنظمـة النحـوية أن تهتم بمعرفة وسبر النظام الداخلي المحدد للعملية النحوية . . ثم أن تهتم بمعرفة الخصائص البنوية الفكرية لذلك النظام .

والـواقـع أن ما كان دعاه علماء اللسان بنظرية (النحو المكلي) Universal Grammar يمكن أن يُعتبر نظرية ميكانيكية غريزية فطرية وراثية أو أنه يمكن أن يعتبر نسيجاً بيولوجياً مخبأ في الدماغ البشري يمكن من خلاله أن تعمل الفاعلية اللغـويـة . والحقيقـة ليس هنـاك أي مسـوغ لعالم اللسان بألّا يعتقد بمثل هذه الفرضيات والمبادىء ، وذلك لأن هذه المبادىء النحوية الكلية الفاعلة والمنفعلة في الـدمـاغ البشـري إنما هي عمليات تجريدية مكمبتة مبنيّة على أرضية وراثية تطورية تمكّن الطفل من تفسير الأحداث والتجارب اللغوية ثم تمكنه أيضاً من صياغة نظام من القواعد المبنية على مثل هذه العمليات التجريدية المكمبتة .

وبعبارة أخرى ، يمكننا أن نفترض أن هناك وضعاً لغوياً بدائياً وراثياً في جميـع الفصـائـل الإنسـانيـة ، هذا الوضع اللغوي البدائي يختلف بالطبع عن الـوضـع البـاثـولوجي اللغوي Pathology الذي يمكن أن يحدث عند الفصائل الإنسـانيـة مسبباً لها بعض الأمـراض اللغـويـة . إن الوضع البدائي في أدمغة الفصـائـل الإنسـانيـة إنـما هو عرضة للتطور والنضج البيولوجي الذي يتم تحت شروط تجريبيّـة معينـة بحيث يمكن لهذا الـوضع البدائي الوراثي أن يصل إلى مرحلة ثابتـة من النضـج البيـولـوجي لا يمكن له بعدها أن يتطور مرة أخرى . وهكذا فإن الوضع الأخير للتطور والنضج البيولوجي سيمكّن الدماغ من القيام بوظيفته اللغوية القائمة على التجربة بأتم وجه .

ما أريد أن أقوله هنا هو أن مفهوم (النحو الكلي) إنما هو خاصة من خصائص هذه الوظيفة البيولوجية للدماغ ولا سيما في مراحلها الأولية . وذلك لأن قواعد هذا النحو الكلي تنحو نحواً فيزيولوجياً وبيولوجياً طبيعياً داخل الدماغ مستفيدة من المواد اللغوية المقدمة لهذا الدماغ (بغض النظر عن هوية هذه المواد التي يمكن أن تكون مختلفة) .

من هنا فإنه ينبغي على علم اللسان البشري أن يكون دراسة تجريدية للفاعلية والميكانيكية البيولوجية اللغوية المتطورة في الدماغ . فعلى سبيل المثال فإنه ينبغي على علم اللسان أن يعتبر أن دراسة المقدرة اللغوية البيولوجية في جميع مراحلها وأوضاعها الأولية والمتوسطة ثم الأخيرة مشابهة تماماً لدراسة الكمبتات الحسابية العاملة في الأدمغة الالكترونية في جميع مراحلها وأوضاعها .

وبعبارة دقيقة ، إن دراسة المقدرة البيولوجية اللغوية في الدماغ البشري ينبغي أن تكون مشابهة تماماً لدراسة المقدرة الحسابية العاملة في الأدمغة الالكترونية والتي يمكن لها أن ترسم لنا الأبعاد التثليثية للرؤية البشرية على سبيل المثال .

والحقيقة يمكن أن تنبثق الشواهد التي تدعم هذه الفرضيات التجريبية السالفة من عدة مصادر متنوعة ، نأمل في نهاية المطاف أن نجد فيها الشاهد القوي المتعلق بالفاعلية والميكانيكية الفيزيائية التي تكشف لنا المقدرة البيولوجية لمبرمجة في الدماغ . ويمكن لنا في هذا المجال أن نتوقع بأن النتائج المنبثقة عن لدراسة التجريدية للمقدرة البيولوجية اللغوية المبرمجة إنما ستعمق معارفنا حول طبيعة هذه المقدرة .

والواقع أن السؤال عن القدرة اللغوية معقّد تعقيد القدرة اللغوية

نفسها . وهذا يأتي بالطبع من حقيقة أن القدرة اللغوية هي نظام واحد من عدة أنظمة فكرية متداخلة ومتشابكة في الدماغ البشري هذه الأنظمة المتشابكة تنتج ما يسمى بـ (اللغة) في صفتها التطبيقية الاستعمالية الواقعية .

فعندما نتكلم كلاماً ما أو نفسر ما نسمعه فإننا في هذه الحالة نضع في حسباننا مجموعة من الفرضيات المتعلقة بالعمليتين اللغويتين أي العملية الكلامية والعملية السمعية ، كموضوع المحادثة أو القوانين الطبيعية المحيطة بتلك العمليتين ، أو اعتبار أنظمة المؤسسات الإنسانية المجتمعة وما أشبه ذلك .

ولكن افتراضنا بأن نظام القواعد النحوية هو (عضو ذهني بيولوجي) متشابك ومتداخل مع أعضاء ذهنية بيولوجية أخرى لها وظائف مختلفة إنما يضعنا أمام مشكلة تنبع من طبيعة العلوم الطبيعية نفسها .

هذه المشكلة هي مشكلة التجريدية والمثالية المفترضة حول وجود هذا النظام للنحو الكلي في الدماغ البشري .

والواقع لكي يمكننا التغلب على هذه المشكلة فإن على الباحث أن يبذل جهداً واضحاً لتحديد نظام واحد من تلك الأنظمة المتشابكة كنظام الإنجاز الفعلي للغة[1] (Performance) ذلك الإنجاز اللغوي الذي يمكننا ملاحظته من خلال العملية الكلامية . وهكذا يمكننا أن ننطلق من المعارف الحسية التجريبية لمعرفة الحقائق التجريدية المثالية أي أننا ننطلق في دراستنا من

---

(١) لا ندري ما الذي يمنع من ترجمة هذا المصطلح بالكلمة العربية الدقيقة : (الأداء) وهي (تؤدي) معنى الإنجاز الفعلي ، كما أنها أقرب للأصل اللغوي وللمعنى العام للكلمة الإنكليزية Performance . ولا بأس بأن نغتنم هذه الفرصة لندعو إلى مزيد من التدقيق في ترجمة المصطلحات والكلمات المفتاحية إلى العربية . (رئيس التحرير) .

الإنجاز الفعلي للغة (Performance) للتوصل إلى المقدرة اللغوية (Competence) . على أنه من خلال دراسة الإنجاز الفعلي للغة يجب أن نتذكر بأن الهدف البعيد من البحث هو المقدرة اللغوية في الدماغ .

إن هذه الخطوات في البحث اللساني البيولوجي هي خطوات محفوفة بالخطر وذلك لأن البحث عن النظام التجريدي المنتج للغة يمكن أن يقودنا إلى أنظمة أخرى متشابكة ومتداخلة معه والتي بدورها تصوغ البنى البيولوجية للدماغ .

٣ ـ مقارنة بين الدراسات البيولوجية للغة وبين الدراسات الفيزيائية للفلك

هناك قضية لسانية نفسية تدور مناقشاتها في العصر الحديث في حقلي علم اللسان وعلم النفس على السواء . . تلك القضية تُعرف بـ (الواقع السيكولوجي) (Psychological Reality) .

والواقع أنني أعتبر (الواقع السيكولوجي) للعملية اللغوية جزءاً من النظام البيولوجي اللغوي القادر على أن ينتج إما قواعد نحوية خاصة بلغة معينة أو قواعد نحوية كلية تختص باللغات البشرية كلها . وهكذا فإن (الواقع السيكولوجي) يمكن أن يُدرك من خلال الفرق بين القواعد النحوية الخاصة والقواعد النحوية الكلية .

والحقيقة أن البحث في (الواقع السيكولوجي) يبدو مضلّلاً في بعض الأحايين . وأستطيع أن أدلل على مخاوفي من المناقشات والبحوث المتعلقة (بالواقع السيكولوجي) من خلال هذه المقارنة بين الدراسة الفيزيائية الفلكية والدراسة البيولوجية اللغوية . لنتأمل قليلاً المشكلة المتعلقة بتحديد طبيعة العلاقات النووية الحرارية (Thermonuclear) في أعماق الشمس ، ولنفترض بأن

تقنيات البحث الفيزيائي المتوفرة لعلماء الفلك لا تسمح لهم بأن يدرسوا إلاّ الطاقة الضوئية المنبعثة من المجموعات الشمسية . وهكذا فإن علماء الفلك سيضعون نظرية فيزيائية يمكن لها أن تشرح العلاقات النووية الحرارية داخل الشمس تلك العلاقات التي لا يمكن رؤيتها على الإطلاق . إن الفرضية الفيزيائية هنا هي أن علماء الفلك ، من خلال دراساتهم للطاقة الضوئية سيحددون عناصرها الكثيفة والمتشابكة وذلك من خلال علاقات فيزيائية دقيقة قادرة على توليد الطاقة الضوئية الحرارية .

وهكذا فإننا نرى عالم الفلك يضع نظرية فيزيائية تشرح العلاقات النووية الحرارية للشمس دون أن يرى مثل هذه العلاقات . إن شواهده وملاحظاته الفيزيائية على ذلك إنما هي المركّبات الضوئية الشمسية الأكثر بعداً من الشمس نفسها .

لنفترض أننا نريد أن نفنّد وننقد هذه النظرية الفيزيائية الفلكية ، فإن الحجة التي سنقدّمها تكمن بالملاحظة التالية : « الواقع أنه لا غبار على النظرية الفيزيائية الفلكية التي قدّمها عالم الفلك ، تلك النظرية المدعومة بالشاهد التجريبي ، ولكن السؤال الذي يمكن لنا أن نطرحه على عالم الفيزياء الفلكي هو : كيف يمكن لك أن تعرف بأن البنية التركيبية لنظريتك الفيزيائية الفلكية هذه تملك واقعاً فيزيائياً ؟ وبعبارة أخرى كيف يمكن لك أن تعرف بأن نظريتك صحيحة ؟ » .

فإذا كان على عالم الفيزياء الفلكي أن يجيب عن مثل هذه الأسئلة فإنه لن يقدّم لنا شيئاً جديداً . . إنه قد قدم لنا الشاهد التجريبي الملاحظ والمدروس ثم النظرية الفيزيائية التي تفسر وتشرح هذا الشاهد التجريبي أي الطاقة الضوئية المنبعثة من المحيط الخارجي للشمس .

وهكـذا فإن الفضـول العلمي يجعلنا نبحث عن أساليب علمية أكثر دقة وضبطاً ومباشرة . فعلى سبيل المثال يمكن لنا أن نفكر بأنه من المفيد علمياً أن نضـع مخبراً علميـاً داخـل الشمس نفسهـا وذلك لكي نرصد العلاقات النووية الحـراريـة وتوليدها للطاقة الضوئية المنبعثة من الشمس . ولكن بما أنه لا يمكننا أن نفعـل ذلـك فإن علينـا أن نثبت هذه العـلاقـات النووية الحرارية من خلال التأثيرات الضـوئيـة الخـارجيـة غير المبـاشرة ، وبهذا فإنه يمكننا أن نعرف بنية اللامرئي من خلال البنية المرئية .

وبهذا يمكننا أن ندحض حجة عالم الفيزياء الفلكي على أسس فيزيائية مثبتين خطأ نظريته الفيزيائية التي لم تقدم دليلاً حاسماً وصحيحاً .

ولكنـه في الـوقت نفسـه لا يمكن لنا أن نأتي بفرضية فيزيائية أكثر صحة ودقـة لإثبات (الواقع الفيزيائي) للبنية التركيبية للعلاقات النووية الحرارية . أضف إلى ذلك أننا لا نستطيع أن نقدّم بنية تركيبية أكثر دقة وثبوتية كما هو الأمر في العلوم الطبيعية ، ونظرياتها الدقيقة والثابتة . وهكذا نستنتج بأنه ليس هناك أسس واضحة وثابتة يمكن أن يقدمها عالم الفيزياء الفلكي لشرح (الواقع الفيزيائي) .

لنفـترض مرة أخـرى بأن هنـاك عالمـاً فيزيائياً فلكياً مجرباً وحاذقاً ومبدعاً يملك الأسلوب العلمي المبـاشـر لدراسـة العـلاقـات النووية الحرارية الموجودة داخـل الشمس وبـالتحـديد دراسة الطاقة النيوترينيّة (Neutrino) [1] المتشكلة من خلال ردود الفعل الناتجة عن هذه العلاقات النووية الحرارية داخل الشمس . فإذا كان لهذا العـالم الفيـزيـائي الفلكي الحـاذق والمجـرب أن يثبت لنـا صحـة النظرية القديمة الناقصة أو أنه بدل ذلك يمكن أن يضع نظرية فيزيائية أفضل منهـا فإن السـؤال الـذي يطـرح نفسه هو : هل يعني أن هذا التحقيق العلمي

(١) النيوترين هو دقيقة أوليّة متعادلة ذات كتلة أصغر من كتلة الألكترون .

المباشر للعمليات الجارية داخل الشمس يمكن أن يقدّم لنا أجوبة حاسمة للأسئلة التي كنا عرضناها من قبل ؟ وبعبارة أدق هل نحن الآن في وضع أكثر علميّة وثقة ودقة لفهم (الواقع الفيزيائي) للبنية التركيبية للعلاقات النووية الحرارية ؟

إن الجواب على ذلك في رأي هؤلاء ، وذلك لأنه ليس هناك الشاهد والدليل التجريبي الحاسم والمقنع ، ولكن يمكننا أن نقول في الوقت نفسه ومن خلال هذه الشواهد المباشرة بأننا أكثر ثقة من قبل بالعمليات النووية الحرارية الجارية داخل الشمس والتي هي حقيقية من الناحية الفيزيائية . . . بل أكثر من ذلك إننا الآن أكثر ثقة بالفرضيات والنظريات الجديدة والصحيحة الموضوعة لشرح هذه العمليات الفيزيائية .

ما أريد أن أركز عليه من خلال هذه المناقشات هو أن هناك إحساساً ضعيفاً تجاه خلافنا حول الافتراضات والنظريات التي وضعناها فيما إذا كانت واقعية من الناحية الفيزيائية .

والواقع أن هذه المغامرات والطروحات العلمية التي لا تتجاوز حدود الأسئلة إنما هي بنفسها علم تجريبي وليس رياضيات تجريدية ، وهكذا يبدو من الأفضل والأنجع أن نختار نظرية أو فرضية واحدة من عدة فرضيات مطروحة في المجال العلمي . هذه الفرضية ينبغي أن تأخذ بحسبانها الشاهد والدليل التجريبي الحاسم الذي يدل بشكل أو بآخر على وجود الواقع الفيزيائي في بنية فيزيائية من هذا العالم .

والحقيقة أن دراستنا للفاعلية البيولوجية للقدرة اللغوية وعملياتها داخل الدماغ البشري تشبه تماماً دراستنا لردود الفعل النووية الحرارية وعملياتها داخل الشمس . . تلك الردود الناتجة عن الطاقة الضوئية المنبعثة من المحيط الخارجي

للشمس . فعـالم اللسـان البيـولـوجي يمكن أن يلاحـظ بأن جميـع الكـائنـات البشـريـة تستطيع أن تتكلم وتتصرف في محيطات بيئية معينة من المجتمع الذي تعيش فيـه . ولكن كيف تستطيـع هذه الكائنات البشرية أن تتكلم وتتصرف ؟ فلكي يستطيع عالم اللسان البيولوجي الإجابة عن مثل هذا السؤال فإن مهمته هي معرفة هذه الشواهد والمواد المتكلمة الملاحظة ثم معرفة ردود الفعل الإنسانية تجاه الأحداث المحيطة بمثل هذه المواد المتكلمة . والواقع أن ما يهدف إليه عالم اللسـان البيـولـوجي من خلال هذه الـدراسـة التجـريبيـة للعملية الكلامية هو التوصل إلى الفاعليات والميكانيكيات العاملة في الدماغ البشري . وهذا بالطبع سيقـود عالم اللسـان البيـولوجي لوضع نظريات وفرضيات معينة مبنية على هذه العمليـة الكـلاميـة التجريبية المشاهدة ثم ردود الفعل السلوكية اللغوية تجاهها وذلك لشرح وسبر هذه الفاعليات والميكانيكيات المخبأة والمستترة في الدماغ .

وهكـذا فلكي يبيـّن ويثبت عالم اللسـان البيـولـوجي بأن هنـاك (واقعـاً سيكـولـوجيـاً) لتلك للفـاعليات والميكانيكيات العاملة في الدماغ فإن عليه أن يعيـد النظـر بشكـل أو بآخـر بالشواهد والمواد والسلوكات اللغوية التي كان بنى نظـريتـه عليهـا . ثم إن عليـه أن يعيد النظر بالمقترحات المتعلقة بهذه الشواهد والمواد والسلوكات اللغوية .

والواقع أن منهجية عالم اللسان البيولوجي في هذا تشبه تماماً منهجية العالم الفيـزيـائي الفلكي الـذي لا يمكن له أن يرضى للوهلة الأولى عن الشـواهـد والمـواد الفيـزيـائيـة التي لاحظهـا من خلال انبعـاث الطـاقة الضوئية من محيط الشمس الخارجي ثم بنى بعد ذلك بنظريته عليها .

وهكـذا فإننـا نرى بأن عالم اللسان البيولوجي سيشعر دائماً بوخز الضمير العلمي الذي يحثّه على إيجاد الشواهد والمواد اللغوية الأكثر علمية ودقة وشمولية وضبطاً .

إن الفكـرة الـرئيسية والمهمة في البحث العلمي بما فيه البحث البيولوجي اللغـوي هي أن نضـع في أذهـانـا أنه لا يمكن لنا إلاّ أن نتبنّى نظرية أو فرضية معينـة من عدة فرضيـات أخـرى ثم أن نحاول إثباتها ودحضها لبقية النظريات والفـرضيـات العلميـة الأخـرى وذلك على أساس تجريبي علمي ، ولكن هذا لا يعني أبداً صحة هذه النظرية أو الفرضية التي نتبنّاها . فعلى سبيل المثال فإنه في الـوقت الـذي نحـاول أن نثبت وجـود (الـواقـع السيكـولوجي) للعلميات والميكـانيكيـات العاملة في الدماغ البشري فإنه يمكن لنا أن نحاول أن أندحض ونفنـد مثـل هذا الـوجود وحجتنا في ذلك هي أن الشواهد والأدلة المقدمة لشرح (الـواقـع السيكـولـوجي) وإثبـات وجـوده إنـما هي ضعيفـة ، بل إنها عرضة لتفسيرات وتأويلات مختلفة . أضف إلى ذلك أن الشواهد والمواد المقدمة لعالم اللسـان البيـولـوجي لإثبـات الفاعليات المخبأة في الدماغ البشري إنما هي أقل رضىً وقـوة من الشـواهـد والمـواد المقـدمـة لعالم الفيزياء الفلكي وذلك لإثبات الفاعليات النيوترينيّة المخبأة داخل الشمس .

ولكن المنهجيـة العلميـة التي تجمـع عالم اللسان البيولوجي وعالم الفيزياء الفلكي هي أن جوهر المشكلات التي يعالجانها إنما هي واحدة .

وبعبـارة أدق إن البحث عن (الـواقـع السيكـولـوجي) داخـل الـدماغ البشـري إنـما هو في جوهـره مماثـل للبحث عن (الـواقـع الفيـزيـائي) داخـل الشمس ، والـواقـع إن البحـوث اللسـانيـة البيولوجية السالفة والمتعلقة بإثبات (الـواقـع السيكـولوجي) كانت قد أخذت وجهة مختلفة عن البحوث اللسانية البيـولـوجيـة الحـاليـة ، لقـد ركزت تلك البحوث السالفة على الشواهد والمواد اللغـويـة المتعلقـة فقـط بـ (ردود الفعل الإنسانية وأزمنتها) ثم بـ (العمليات العقلية الإدراكية وانعكاساتها العملية) وأخيراً بـ (العمليات الجارية بالذاكرة وانعكـاسـاتهـا التجـريبيـة) وهنـاك شواهـد ومـواد لغوية متعلقة بأشياء أخرى

لا داعي للبحث فيها كالشواهد والمواد اللغوية المتعلقة باستنطاق المتكلمين وأحاديثهم اللغوية وجعلها عينات للوصول إلى الفاعليات التي تثيرها وتركبها .

والحقيقة أن كل هذه الشواهد والمواد اللغوية المستخدمة للوصول إلى الفاعليات الذهنية لا تملك الجواب الحاسم المقنع الذي يدل على وجود (الواقع السيكولوجي) للفاعليات البيولوجية اللغوية . فإذا كان علينا أن نبحث بشكل تجريبي علمي أكثر دقة وضبطاً عن (الواقع السيكولوجي) فإن علينا أن نقدم شواهد أكثر رضىً ودقة بحث يمكن لها أن تدحض الشواهد السالفة وتثبت خطلها .

من هنا فإنه ينبغي أن نضع في أذهاننا أن الفرق بين النظريات والفرضيات التي تبحث عن (الواقع السيكولوجي) إنما هو فرق قائم على طبيعة الشواهد الدقيقة التي يقدمها عالم اللسان البيولوجي ويمكن لنا أن نوضح هذه المسألة من خلال هذا المثال المحسوس والبسيط . لنفترض أننا نريد دراسة الجمل الاستفهامية التصورية في الإنكليزية المتكلمة فإننا سنلاحظ أن بعض هذه الجمل مصاغ صياغة نحوية جيدة والبعض الآخر مصاغ صياغة ركيكة . . لنلاحظ الجملة (١) .

(1) VIOLINS are easy to play Sonatas on

إن هذه الجملة يمكن أن تكون جواباً للسؤال (٢)

(2) WHAT INSTRUMENTS are easy to play Sonatas on?

وفي الوقت نفسه فإن الجملة (١) لا يمكن أن تكون جواباً للسؤال (٣)

(3) WHAT KINDS OF MUSIC are Violins easy to play on?

فالجملة (٣) ليست مصاغة صياغة جيدة على الإطلاق ، إن الجملة الاستفهامية الصحيحة التي يمكن أن تكون سؤالاً للجملة (١) هي الجملة

(٤) وليس الجملة (٥) مثلاً :

(4) WHAT VIOLINS are easy to play Sonatas on?

(5) WHAT SONATAS are Violins easy to play on?

والـواقـع أن كشف هذه الفـروق بين هذه الجمل الاستفهامية التصورية يمكن أن يوضّح لنا المشكلة بشكل تام . فالجملة (٥) تشبه الجملة (٣) فهاتان الجملتان ليستا مصاغتين صياغة استفهامية مقبولة في الإنكليزية المتكلمة وذلك لأن الخلل التركيبي في الجملتين إنما يتمثل في أن العبارة الاسمية المستفهم عنها (Sonatas) لا يمكن أن تكون متولدة في آخر الجملة أو ضمن عبارة فعلية مسندة كما رأينا في الجملة (١) مثلاً . وعلى العكس من ذلك فإن الجملة (٦) والمرتبطة بالجملة (٧) إنما هي مصاغة صياغة جيدة .

(6) WHAT SONATAS did john want Bill to play t(1) on the violin

(7) John wanted Bill to play SONATAS on the Violin.

وهكذا فإنه لا مجال للشك بأن الجملة الاستفهامية (٦) تتوافق مع قواعد النحو الإنكليزي المتمثلة في أدمغتنا بشكل أو بآخر . . بخلاف القواعد المتمثلة في الجملة الاستفهـاميـة (٥) تلك القـواعـد التي لا أساس لها في أدمغتنا أبداً ، والحقيقة لقد لاحظت البحوث اللسانية السابقة مثل هذه الحقائق ولكن بشكل غير كاف . إن ما تحتـاجـه هذه الحقـائق هو الشـرح العميق الذي يمكن له أن يكـون دليـلاً واضحـاً على العمق الفكـري للتمثيـلات الـذهنيـة والكميات اللسانية في الدماغ البشري .

لنفـتـرض أنـه يمكننا شرح وسبر هذه الحقائق بشكل متطور ومتقدم فإن مهمتنـا عنـدئـذ أن نعـرف بأن التراكيب الاستفهامية التصورية Wh-clause هي

---

(١) t - trace

تراكيب مقيدة بالضابط النحوي(1) المعبر عنه باللغة الإنكليزية بـ Island-constraint حسب مفهوم عالم النحو جان روز John Ross . أي قيد الجزيرة الميميّة .

والواقع تعتبر العبارة الإنكليزية مقيدة بالضابط النحوي «Island» أي قيد الجزيرة الميميّة إذا كانت مستثناة من تطبيق القواعد التي تربط أجزاءها بوضع خارج عن الضابط النحوي «Island» . وهكذا فإن التراكيب الاستفهامية التصورية «Wh-clauses» المقيدة بالضابط النحوي «Island» تعني أن القاعدة التحويلية المعبر عنها بالإنكليزية بـ «Wh-movement» والتي تصوغ الجمل

---

(١) إن الضوابط النحوية المعبر عنها بالإنكليزية بـ Constraints والتي كان قد استخدمها عالم اللسانيات الأمريكي نعوم تشومسكي في نظريته الأخيرة Gevernment and Binding Theory نظرية العامل والربط الإحالي ، إنما تشبه تماماً الضوابط النحوية التي وضعها نحاتنا القدامى مفرّقين بينها وبين القاعدة . من هنا فقد لجأت إلى ترجمة المصطلح Constraint بالضابط . (يحب الدكتور عبد القادر فاسي منهري أن يصطلح عليه بـ (القيد) . لقد ميّز العالم النحوي الفذ ابن يعيش بين القاعدة النحوية وبين الضابط النحوي فالعوامل النحوية مثلاً إنما هي قاعدة نحوية . هذه العوامل تحكم وتؤثر فيما بعدها وهكذا فالأفعال مثلاً هي عوامل تحكم وتؤثر بالفاعل والمفعول به ، وإن حروف الجر هي عوامل تحكم الاسم المجرور الذي يأتي بعدها . ولكن الضابط النحوي الذي يضبط هذه القاعدة النحوية يمكن أن يكون كالتالي : قال ابن يعيش : لا يعمل في الاستفهام ما قبله من العوامل اللفظية إلاّ حروف الجر وذلك لئلا يخرج عن حكم الصدر ، وإنما عمل فيه حروف الجر دون غيرها لتنزلها مما دخلت عليه منزلة الجزء من الاسم .

لمزيد من الاطلاع على الفروق بين القاعدة وبين الضابط يمكن للقارىء الرجوع إلى السيوطي في كتابه (الأشباه والنظائر في النحو) طبعة حيدلا أباد الدكن ج ١ ص ٣ ـ ٦ ـ ١٢٥ ـ ٢٢٣ ثم الرجوع إلى الدكتور مصطفى جواد في كتابه (دراسات في فلسفة النحو والصرف واللغة والرسم) مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٦٨ ص ٥٢

الاستفهـاميـة والجمل الموصولة (صلة الموصول) في الإنكليزية وذلك بتحريك عبارات استفهامية مثل (What Sonatas) (What) (Who) من آخر الجمل إلى أوّلها ، أقول إن هذه القاعدة لا يمكن أن تُطبّق بشكل عام ومطلق على كل التراكيب الاستفهـاميـة التصورية Wh-clauses . فعلى سبيل المثال لا نستطيع أن نصوغ جملاً استفهـاميـة تستفهم عن العبارة الاسمية (the book) كتلك الواقعة تحت رقم (٩) وذلـك من خلال تطبيق القـاعـدة التحويلية «Wh-movement» على الجمل الواقعة تحت رقم (٨) .

(8) a. We Wondered [to whom John gave the book]

Wh Island

b. We found out [who wrote the book]

Wh Island

c. We did [What you asked us to do about the book]

Wh Island

(9) a. What book did We wonder [to whom John gave t]

b. What book We find out [Who Wrote t]

c. What book did we do [what you asked us to do a bout t]

والـواقـع إن العبـارة الاسميـة (The book) المستفهم عنها والتي هي ضمن الضـابـط النحـوي Wh-Island يمكن أن تُطبّق عليهـا القـاعـدة الاستفهـاميـة التحـويليـة «Wh- movement» ولكن بشـرط واحـد هو أن نستبعـد العبـارات الاستفهـاميـة (Whom) (Who) (What) التي هي في الجمـل التي بين قوسين مربعين والـواقعـة تحت رقم (٨) . فإذا فعلنـا ذلك فإننا سنحصل على جمل استفهامية تصورية صحيحة كالواقعة تحت رقم (١٠) .

10. a. What book did we say that John gave to Bill t.

b. What book did we find out that John Wrote t.

c. What book did we askyou to tell Bill to do Something about t.

وهكـــذا نستنتـج من خلال هذه الأمثلة أن عبـارات الاستفهـام داخـل الـتراكيب الاستفهـاميـة التصـورية Wh-clauses والتي رأيناها في الجمل التي بين الأقـواس المـربعة الواقعة تحت رقم (٨) لا يمكن أن تقبل القاعدة الاستفهامية التحويلية Wh- movement في اللغة الإنكليزية .

والـواقـع يمكن القـول بشكـل عام بأن تراكيب الاستفهـام التصـوري Wh-clauses في اللغة الإنكليزية والتي هي عرضة للضابط النحوي (قيد الجزيرة الميميّــة) Wh-Island يمكن لها أن تقبــل القــاعـدة الاستفهـاميـة التحـويليـة Wh-movement .

والحقيقـة إن أكثـر الضـوابط النحوية بما فيها الضابط النحوي Wh-Island (قيـد الجـزيرة الميمية) إنما هي خصائص لسانية عميقة من خصائص القواعد النحوية المعبر عنها في الإنكليزية بـ Locality Principle أو مبدأ المحليّة . لنعد إلى الجملة (١) ونحللهـا من جديـد ، لنفترض أن العبارة الفعلية (To play Sonatas on) هي فضلة داخـل الـتركيب الاستفهـامي التصوري Wh-clause فإن الكمبتة الذهنية ستثبت لنا بأن الجملة (١١) والتي تظهر على أنها صلة من خلال الأداة (to) إنما هي مشابهة لجملة الصلة (١٢) والتي تظهر دون الأداة (to)

(11). I found [NP a violin [S to play sonatas on]]

(12). I found [NP a violin [S that you can play sonatas on]]

وبعبــارة أخــرى ، لنفــترض أنــه يمكن الحصــول على الــتركيب الاستفهامي التصوري Wh-clause ، فإن التركيب المتمثل في (١٣) سيكون في مرحلة الكمبتة اللسانية التي تعمل عليها القاعدة التحويلية Wh-movement لتنتج في النهاية الجملة (٥) مثلاً .

(13). [S which for PRO to play sonatas on T]

وهكـذا يتبـين بأن قاعدة الاستفهام التصوري Wh-movement لا يمكن أن تُطبّق على العبـارة الاسميـة (Sonatas) التي تشبـه العبـارة الاسميـة (the book) والتي لا يمكن للقـاعـدة المـذكورة أن تُطبق عليها كما شاهدنا في الجمل الواقعة تحت رقم (٨) . إن الضابط النحوي المفروض على مثل هذه العبارات إنما يتعلق بما كنا قد اصطلحنا عليه بـ Wh-Island أو قيد الجزيرة الميمةّ .

إن الهدف من كل هذه الأمثلة والمناقشات الدائرة حولها هو البرهان على إثبـات وجـود تمثيلات ذهنية معينة للتراكيب الاستفهامية التصورية Wh-clauses في الدماغ .

والـواقـع يمكننا أن نبحث عن شاهد ودليل أكثر قوة وإقناعاً لإثبات مثل هذه التمثيـلات الـذهنيـة في الـدماغ البشري ، فعلى سبيل المثال إن التركيب (١٤) إنما هو مرتبط تماماً بالتركيب (١) .

(14). This is an easy violin to play sonatas on.

ولكن الفرق هنا بين (١٤) وبين بعض التراكيب الأخرى هو أن العبارة الاستفهامية (Wh) يمكن لها أن تظهر في تراكيب مشابهة تماماً للتركيب المتمثل في (١٤) كالتركيب (آ - ١٥) .

(15). a. He is an easy person to whom to speak a baut your problems

b. He is an easy person to speak a baut your problems to.

إن هذه الـتراكيب الـواقعـة تحت رقم (١٥) إنـما هي مماثلة للتراكيب الواقعة تحت رقم (١٦) :

(16). a. I met a person to whom to speak a baut my problems.

b. I met a person to speak a baut my problems to.

وإن هذه الـتراكيب الـواقعـة تحت رقم (١٦) إنـما هي مشـابهـة أيضـاً للتراكيب الواقعة تحت رقم (١٧) :

(17). a. I met a person to whom I spoke a baut my problems.

b. I met a person whom I spoke a baut my problems to.

إن العبـارة الاستفهـاميـة (Wh) في التـركيب رقم (ب ـ ١٧) إنـما هي محذوفـة من التـركيـبين (ب ـ ١٦) و (ب ـ ١٥) وذلك لأسباب لا تعنينا في هذا البحث . على أن هذه العبارة الاستفهامية (Wh) إنما هي ظاهرة في التركيب (آ ـ ١٥) مثبتـة الفـرضيـة التي اقـترحنـاهـا من قبـل والقائلة بأن هذه العبارة الاستفهـاميـة هي ظاهـرة في التمثيل الذهني كما في التركيب (١) ولكنها محذوفة من التركيبين (ب ـ ١٦) و (ب ـ ١٥) .

والواقع إنه إذا دمجنا هذه الملاحظات والنتائج بنظرية عامة تأخذ بحسبانها النحـو الإنكليـزي والنحـو الكـلي فإننـا سنقـدم دعماً إضافياً للمثيلات اللغوية المقترحة في الأمثلة السالفة الذكر .

لنفـترض الآن بأن هذه المـلاحظـات والنتـائـج اللغـوية صحيحة (مع افتراضنا بقابليتها للتبدل والتغيرّ والتعديل) فعندئذ يمكن لنا أن نعزو الفاعلية البيـولـوجيـة اللغوية في الدماغ إلى تمثيلات ذهنية معينة ثم إلى كمبتات لسانية عاملة على مثل هذه التمثيلات الذهنية .

وبعبارة أكثر تحديداً إننا نعزو هذه الفاعلية البيولوجية اللغوية إلى التمثيل الذهني في التركيب (١٣) ذلك التركيب الذي هو جزء من التركيب الأساسي (٥) . بل أكثـر من ذلـك ، إنه يمكننا أن نعزو هذه الفاعلية البيولوجية اللغوية إلى الكمبتـة الـذهنيـة الحسـابيـة التي تنتج هذا الاشتقـاق اللغوي المتمثل في الـتركيب (٥) ذلـك الـتركيب الذي اعتبرناه غير نحوي وذلك بسبب الكمبتة الذهنية الحسابية التي تنتهك قيد الجزيرة الميميّة Wh-Island . وذلك عند تطبيق القاعدة التحويلية Wh-movement على العبارة الاسمية (Sonatas) كما هو الحال في التركيب (١٣) .

وباختصار ، إذا كنا قد افترضنا بأن نظريتنا هذه هي صحيحة (مع افتراض قابليتها للتبديل والتغيّر والتعديل) فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل نكون قد خطونا بهذه المقترحات والتنظيرات خطوة متقدمة وشرعية ؟

لا أظن كذلك ، لا شك أن خلافاتنا ومجادلاتنا حول طبيعة الشواهد والمواد المقدمة لتحليل الظاهرة اللغوية البيولوجية ستعمّق من فهمنا للمبادىء الأساسية المقترحة .

إن هذا الإجراء اللساني مشابه تماماً لإجراء عالم الفيزياء الفلكي ومقترحاته الهادفة إلى معرفة طبيعة العلاقات النووية الحرارية العاملة داخل الشمس رغم الفروق المنهجية بين عالم اللسان البيولوجي وبين عالم الفيزياء الفلكي . والواقع أن الفرق بين منهجية عالم الفيزياء الفلكي ومنهجية عالم اللسان البيولوجي ليس فرقاً في المبدأ وإنما هو فرق في التفصيلات وذلك لأن الفضول العلمي لعالم اللسان البيولوجي يدفعه دائماً لفحص الكائنات البشرية وبعض الكائنات الأخرى وذلك للحصول على معارف أوسع وأعمق حول الفاعليات الدماغية اللغوية من جهة ثم تقريب بحثه من البحوث الفيزيائية . فإذا ما حقق عالم اللسان البيولوجي مثل هذه الشروط الدقيقة في بحوثه فإن الفجوة العلمية بين العلوم اللسانية والعلوم الفيزيائية سرعان ما تضيق وتتلاشى .

والحقيقة أن هناك عدة أسئلة يمكن لها أن تنهض بشكل شرعي مقبول حول الفرضيات التي أشرت إليها من قبل . وهكذا يمكن للعالم أن يسأل عن مدى طبيعة الشواهد والأدلة المقدمة لدعم الفرضية المطروحة ثم عن مدى صحة المبادىء القائمة على مثل هذه الشواهد والأدلة . أما فيما يتعلق بطبيعة الشواهد والأدلة فإنه يمكننا أن نخطو خطوة أخرى وذلك لفحص النتائج والمبادىء المستنبطة من التراكيب الجيدة الصياغة في الإنكليزية المتكلمة .

فعلى سبيل المثال يمكننا وضع امتحان تجريبي وذلك لفحص المعيار اللساني النحوي المصطلح عليه بـ (معيار المقبولية) acceptability . فإذا ما نجح مثل هذا الامتحان التجريبي فإنه يمكننا أن نستخدم نتائجه في تحديد دقة الأحكام التي أطلقناها على الصياغات الإنكليزية مدركين أن (الصياغة الجيدة) للتركيب اللغوي هي مفهوم نظري لا نستطيع من خلاله أن ندرك معايير لغوية فاعلية ضرورية وكافية .

والواقع ينبغي لامتحان معيار المقبولية أن يتطابق مع الشروط التجريبيّة المعينة . فهو يشبه في هذه الحالة أية نظرية علمية ينبغي عليها أن تتطابق مع بعض الشروط التجريبيّة المعينة .

لقد شك بعض علماء اللسان بفرضية امتحان معيار نحوي ما مدّعين أن الشروط المستخدمة في فحص امتحان ما هي نفسها يمكن أن تكون عرضة للشك والفحص والتعديل . والحقيقة أن مثل هذا الشك لا يملك الأساس العلمي الصحيح وذلك لأنه يدور في حلقة مفرغة . إن هذه الحالة تشبه تماماً إعادة اكتشاف الحقيقة القائلة بأن علم اللسان ليس فرعاً من الرياضيات ولكنه فرع من العلوم الطبيعية التجريبية . ذلك الاكتشاف الذي يُعدّ بدهياً . والحيقة أننا إذا منحنا هذه الصفة التجريبية لعلم اللسان فإنه يبقى هناك بعض الجمل الملاحظة التي تؤلف حجر الأساس للمعرفة البشرية ولكنها لا تخضع لمعيار التجريبية ، على أية حال يبقى صحيحاً بأنه ينبغي على العالم أن يلجأ إلى النظرية وذلك لتحديد كمال ودقة الملاحظات التي كوّنها حول ظاهرة معينة .

وبعبارة أخرى إن على أي عالم أن يضع في ذهنه أنه ليس هناك مجال للجزم الديكارتي الحاسم والأخير .

لقد ظن كثير من العلماء بأن مشكلة الدقة والتأكد التجريبي العلمي يمكن التغلب عليها من خلال اهتمامنا وتركيزنا الشديد على المواد والعينات المدروسة Corpus . بل لقد ذهب بعضهم ليقول بأن التأكد التجريبي العلمي كان صفة من صفات البحث في القواعد التقليدية كما نجد ذلك عند الباحث ني Ney . والواقع إن هذا الادعاء ليس صحيحاً وذلك لأن المواد والعينات اللغوية يمكن أن تحوي أمثلة من الجمل الركيكة غير النحوية والتي يمكن لعالم اللسان أن يدركها محاولاً تصحيحها . بل أكثر من ذلك يمكننا القول بأن أي دراسة جدّية للاستعمالات اللغوية التي تستنبط شيئاً تجريبياً مجدياً كالأعمال الكلاسيكية لـ جيسبرسين Jespersen ينبغي أن تسترعي انتباهنا .

إن الفكرة الرئيسية هنا هي أنه ينبغي علينا أن نحصر التحليل النحوي بعينات ومواد لغوية معينة . إن عملنا هذا ينبغي أن يشبه تماماً التحليل الفيزيائي للأحداث المحيطة بنا خلال حياتنا العادية التي تبدو كأنها شريط سينمائي عابر .

وهكذا فإذا أردنا منهجاً أكثر عملاً وإنتاجية من الناحية التطبيقية والنظرية فإن علينا أن نأخذ بالاعتبار السؤال الذي طرحناه من قبل ذلك السؤال الذي يحثنا على شرح المبادىء العامة المستعملة في التحليل اللغوي ثم وضع هذه المبادىء تحت امتحان تجريبي مستقل .

إن الخطوة الأولى في المنهج التطبيقي والنظري الذي نهدف إليه هو محاولتنا شرح قيد الجزيرة الميمية Wh-island المطبق على التركيب الاستفهامي التصوري وذلك من خلال مبادىء نحوية أكثر عمقاً وتحليليّة وشمولية وذلك لوضع هذا الشرح والتحليل اللغوي في صيغة تجريبية أكثر إثارة وتحدياً للبحث العلمي وهذا لا يتم بالفعل إلاّ إذا بحثنا عن شواهد أخرى تدعم التحليل اللغوي للشاهد الذي كنا قد اقترحناه من قبل والمتمثل في الجملة (١) ثم

التمثيل الباطني والكمبتة اللسانية لمثل هذا الشاهد والواقعة تحت رقم (١٣) .
لنفترض أن هذا المنهج التطبيقي والنظري الذي اقترحناه قد أعطى ثماراً جيدة فإن علينا في هذه الحالة أن نقدّم شاهداً جوهرياً مستقلاً يمكن أن يسهم في بناء النظرية التي نريد صياغتها ، تلك النظرية المبنيّة على الحقائق التي استُنبطت ثم على حقائق أخرى مشابهة . فإذا ما فعلنا كل هذا فإن السؤال الذي يطرح نفسه مرة أخرى هو : هل يمكننا أن نعتبر أننا قد قدمنا الشاهد القوي والحازم للدلالة على وجود (الواقع السيكولوجي) ، للتمثيلات الذهنية للشواهد التي كنا قد اقترحناها ؟

الواقع أن العديد من علماء اللسان ومن خلال دراساتهم اللسانية السالفة يودّون أن يرفضوا النتائج التي توصلنا إليها وهكذا فإن إجاباتهم ستكون بالرفض . إن حجتهم على ذلك هي أن المنهج التطبيقي والنظري التحليلي الذي أخذنا به لإثبات (الواقع السيكولوجي) ينبغي أن يكون أعمق وأشمل بحث يراعي إزالة الحواجز والعوائق التي تفصل بين التراكيب المفترضة وتراكيب أخرى يمكن لها أن تسهم بشكل أو آخر بكشف (الواقع السيكولوجي) ومعرفته معرفة جيدة .

لنفترض الآن بأن أحد علماء اللسان يود أن يضع تجربة معينة تتعلق (بالإدراك اللغوي) أو (استدعاء الذاكرة) وذلك لامتحان وجود التركيب الاستفهامي التصوري Wh-clause في التمثيل الباطني في الدماغ . ونفترض أيضاً بأن عالماً لسانياً آخر يود أن يكتشف البنية التركيبيّة للفاعلية الكهربائية في الدماغ البشري تلك البنية المرتبطة بوجود التراكيب اللغوية Wh-clauses بمختلف أنواعها كالتركيب الاستفهامي التصوري Wh-question ، ثم كتركيب صلة الموصول Relative clause . ولنفترض بأنه يمكن لعالم اللسان أن يلاحظ البنية التركيبية للفاعلية الكهربائية من خلال تكلم الشخص وفهمه لجمل

معينة .

فإذا ما اكتشفنـا كل هذا بالفعـل . . فهل نكون قد أثبتنا وجود (الواقع السيكـولـوجي) للتمثيـلات الـذهنيـة للجمـل اللغوية المقترحة ؟ الواقع إنني لا أرى أي إسهـام إضـافي للشـاهـد الجـديـد يمكن أن يثبت وجـود (الـواقع السيكولوجي) في حين أن الشاهد القديم يثبت فقط شيئاً مفترضاً دون التأكد من وجوده .

إنـه يمكن أن نقـول بأن هذا الشاهد الجديد يمكن أن يكون أكثر جديّة وإقناعاً من الشاهد القديم ، وفي الوقت نفسه يمكن له ألاّ يكون كذلك . إن حكمنا على جديّة الشاهد العلمي يعتمد على عدة شروط منها :

(١) صفة الشاهد وطبيعته العلمية .
(٢) شرعية الشاهد وكانونيته .
(٣) درجة القوة التي يمكن من خلالها لهذا الشاهد أن يثبت حقيقته ثم تعامله مع مبادىء أخرى تعاملاً إيجابياً .
(٤) وضوح الشاهد .
(٥) شمولية الشاهد .

والـواقـع إنـه من الإنصاف أن نقول بأن المبادىء المستنبطة من الشواهد والمـواد اللغـويـة المشتقة من استنطاق المتكلم informant قد أثبت لأن تكون أكثر عمقـاً وتحليليّـة وعطـاءً من تلك المبـادىء المستنبطـة من الشواهد والمواد اللغوية المشتقة من التجارب الأخرى . فإذا قبلنا (كما أعتقد أنا شخصياً) بالحجة التي قدمها لينبر غ من أن القواعد النحوية هي قواعد متداخلة ومتشابكة في فعاليات وميكـانيكيـات بيـولـوجية أخرى فعندئذ فإن الشواهد المتعلقة بالإنتاج اللغوي (عمليـة كلاميـة) والإدراك اللغـوي (عمليـة فهميـة) يمكن لها أن تؤثـر في

دراستنا هذه القواعد النحوية . وبعبارة أخرى إن هذه الشواهد ستؤثر في دراسة ما اصطلحنا عليه بـ (المقدرة اللغوية) Grammatiscal Competence أو (المعرفة اللغوية) Knowledge of Language . ولكن مثل هذه الشواهد ليس لها ميزة ممتازة وتأثير فعال في معرفة (الواقع السيكولوجي) ذلك أنه لا يمكننا أن نصنف الشواهد اللغوية ضمن صنفين اثنين : شواهد تؤثر في معرفة (الواقع السيكولوجي) وشواهد تصوغ نظريات متعلقة بالكمبتات والتمثيلات الباطنية الذهنية .

والواقع هناك بعض الشواهد اللغوية التي يمكن لها أن تؤثر في المناهج المتعلقة بـ (المقدرة النحوية) بشكل غير مباشر وفي الوقت نفسه هناك بعض الشواهد الأخرى التي يمكن لها أن تؤثر في المناهج نفسها المتعلقة بـ (المقدرة النحوية) بشكل مباشر تماماً بل بشكل أكثر تجريدية من الاستعمال أو الإنجاز اللغوي نفسه .

وهكذا يتبينّ أنه يمكن لعالم اللسان أن يستعمل الشواهد والمواد اللغوية في طرق مختلفة وذلك لأن هذه الشواهد والمواد اللغوية لا تستطيع أن تشرح نفسها بنفسها ، فهي لا تقدم نفسها كجسم جاهز معلل ومشروح بحيث يمكن للنظرية أن تتبناه وتستشهد به للبرهان على وجود (الواقع السيكولوجي) .

٤ ـ مقارنة بين الدراسات البيولوجية وبين الدراسات النفسية العقلية :

يستطيع عالم اللسان أن يرسم خطاً واضحاً يفصل من خلاله علم اللسان عن علم النفس معتمداً على الأدلة والأهداف المتعلقة بكل حقل من ذينك الحقلين . وهكذا يمكن لعالم اللسان مثلاً أن يعتبر علم اللسان علماً يعتمد في تحليلاته وأدلته على الأحكام المستنبطة من المتكلم أو المستنطق الذي

يقـدم المعلومـات اللغوية للدراسة العلمية Informant . ثم إنه يعتمد على المواد اللغـويـة المستنبطـة أو على الاستعـمالات اللغـوية الناتجة عن مواد لغوية فعلية وذلـك من أجـل تحديـد طبيعـة النحـو المتعلق بلغة معينة ثم طبيعة النحو الكلي المتعلق باللغـات البشـرية كلها . والحقيقة أن الهدف الرئيسي لعلم اللسان هو سبر الفاعلية المتعلقة بـ (المقدرة اللغوية) تلك المقدرة التي هي عبارة عن نظام القـواعـد النحوية الموجودة في الدماغ الإنساني والتي من خلالها يمكن للمرء أن يعـرف لغتـه شكـلاً ومضموناً وبوجهيها الكلامي والفهمي . وبعبارة أخرى إن نظـام القـواعـد النحوية هذا هو الذي يولد الجمل اللغوية الصحيحة ثم بالتالي تفسيرها تفسيراً دلالياً صحيحاً ومفهوماً .

فإذا كان لعلم اللسـان أن يثبت مثـل هذا النظـام النحـوي فإن الهـدف الثاني الذي ينبغي لعلم اللسان تحقيقه هو سبر (النحو الكلي) ومعرفة مبادئه وقواعده .

أمـا فيـما يتعلق بعلم النفس فإن الهـدف الرئيسي له هو دراسة (الإنجاز اللغـــوي) Performance وليس (المقـدرة اللغـويـة) Competence . إن المهمـة الـرئيسيـة لعلم النفس هي دراسـة الاستعـمالات الحقيقيـة للغة ثم التفسيرات المتعلقـة بمثـل هذه الاستعـمالات ، وبعبارة أخرى ينبغي على علم النفس أن يهتم بالأشكـال اللغـوية المؤطرة والمنظرة للمقدرات اللغوية تلك الأشكال التي تمرّ في مراحل مختلفة من النمو والنضج عند اكتساب الطفل للغة معينة .

والواقع يبدو لي أن هذا الفصل الحاد بين علم اللسان وعلم النفس غير معقـول بل لا جدوى من التأكيـد عليه . لا شك أن الفصل الحاد بين المعارف البشـريـة إنـما له مسـوغـاتـه في مجالات أخـرى من الحيـاة كما هو الحال في إدارة الجـامعـات وتنظيـماتها أو في إدارة المنظمات المهنية . ولكن ليس هناك أي مسوغ لهذا الفصـل الحـاد في حقـل التكوين الحضاري والبحث التقني ذلك لأنه ليس

هناك فصل حاد بين حدود المعارف البشرية التي تكمل بعضها بعضاً . فعالم اللسان الذي يريد معرفة البنية التركيبيّة للمقدرة اللغوية سيكون في وضع تجريبي أسلم وأقوى إذا استفاد من النتائج العامة للمعرفة البشرية ولا سيما المعارف المتعلقة بالبحوث اللغوية للإنجاز اللغوي . وفي الوقت نفسه فإن عالم النفس الذي يريد معرفة البنية التركيبيّة للإنجاز اللغوي سيكون في وضع تجريبي أكثر علمية إذا استفاد من النتائج العامة للمعرفة البشرية المتعلقة في البحث اللغوي للمقدرة اللغوية .

ويمكنني أن أذهب أكثر من ذلك لأقول بأن النظرية النحوية للغة معينة ثم النظرية النحوية الكلية للغات البشرية كلها إنما يمكن أن نعتبرها وجهاً من وجوه علم النفس المتعلق بالنظام الوراثي البيولوجي للقواعد الكلية وتحولاتها في اللغات البشرية .

والحقيقة أنه مهما كانت الأهداف الرامية إلى دراسة البنية اللغوية والنحوية فإنه لا شك بأن نتائجها ستسهم الكثير في حقل علم النفس التجريبي .

والواقع لقد حاول لينبرج التأكيد على هذه النقطة في جميع أعماله وبحوثه اللغوية البيولوجية . ويبدو لي أن اتجاه لينبرج هو اتجاه سليم وصحيح .

لقد اختلف العلماء بهذ الصدد فلكل آراؤه وحججه المختلفة عن الآراء والحجج التي كنت اقترحتها . يرى كينتش Kintsch ومعاونوه مثلاً في الفصل الأول من كتابهم حول (علم النفس المعرفي) Cognitive Psychology بأن (الفصل الحاد) بين المقدرة اللغوية Competence والإنجاز اللغوي Performance سيمكن عالم اللسان من التعامل مع فرضيات تجريدية غير خاضعة للواقع السيكولوجي . بل أكثر من ذلك ، إن هذا (الفصل الحاد) سيقدم

حجة طريفة لعالم النفس بأن النظريات اللسانية لا تتعلق أبداً بالإنجاز والاستعمال اللغوي . إن اهتمام عالم اللسان ينبغي أن ينصب فقط على معرفة المقدرة اللغوية التي ليست من اهتمام عالم النفس . والواقع إن هذه الملاحظات العامة تعكس عشوائية وفوضى في المنهج الذي تبناه كينتش ومعاونوه . لقد هدف كينتش إلى نقد المنهج اللساني الذي اقترحته من قبل ذلك المنهج الذي يعتقد بأن (المعرفة اللغوية) أو (المقدرة اللغوية) للإنسان يمكن أن تُمثل على أنها نظام من قواعد النحو ثم إن هذا المنهج يعتقد أيضاً بأن الدراسات والبحوث المتعلقة بالإنجاز اللغوي يمكن أن تتحد مع الدراسات والبحوث المتعلقة بالمقدرة اللغوية أو المعرفة اللغوية .

وهكذا فإن مهمة عالم اللسان حسب هذا المنهج الذي اقترحته هي تحديد طبيعة النظام الذي تقوم عليه (المقدرة اللغوية) بشكل تجريبي تلك المقدرة التي تمكّن المتكلم أن يعرف ما يعرفه عن لغته . ثم إن مهمة عالم اللسان حسب ذلك المنهج المذكور هي أن يطور الفرضيات التي تبين كيفية استعمال هذه المعرفة اللغوية . لقد أكّد كينتش بأن دراسة الأنظمة التجريدية للمقدرة اللغوية إنما هي (مسوغة) ولا يمكن للواقع السيكولوجي أن يحدّ منها . ولكننا لا نستطيع التوصل إلى نظرة عميقة ثاقبة تستطيع أن تثبت الحقيقة التي نهدف إليها بغض النظر عن الوسيلة العلمية التطبيقية التي نستخدمها .

والواقع إنه يمكن (للواقع السيكولوجي) أن يحدّ من دراسة الأنظمة التجريدية للمقدرة اللغوية رغم أن هذه الدراسة لتلك الأنظمة تهتم ببعض الأوجه المحددة لذلك الواقع السيكولوجي . والحقيقة أن منهج كينتش النفسي غير مهتم بالنظريات التعليليّة مهما كانت مقنعة وقوية تلك النظريات التي تهتم بهذه الأوجه المحددة من المعرفة اللغوية وأسس اكتسابها سواء أكانت هذه المعرفة تتعلق بقواعد خاصة للغة معينة أم بقواعد كلية للغات البشرية كلها .

وبعبارة أخرى ينبغي ـ على عالم النفس ـ على حد تعبير كينتش ـ أن يستبعد الأسئلة الجوهرية المتعلقة بعلم النفس المعرفي عن مجال اهتماماته أوحتى عن مجال اهتمام أي إنسان . إن ما يدعو للعجب هو ادعاء مثل هذا المنهج بأن كل هذه المقترحات إنما هي مبنية على أسس تجريبية دقيقة .

والواقع أن منهج كينتش ومعاونيه هومنهج من مناهج العلوم الطبيعية ذات اتجاه دوغمائي تزمتي . وذلك لأن عالم النفس الذي يعتمد مثل هذا المنهج في بحوثه لن يعاني فقط من نقص الاهتمامات الرئيسية بالنفس البشرية فحسب بل إنه لن يأخذ أيضاً بالحسبان الأنظمة التجريدية للمقدرة والمعرفة اللغوية . فإذا كان لهذه الأنظمة التجريدية للمقدرة والمعرفة اللغوية والتي كان رفضها كينتش من منهجه أن تكشف الفاعلية البيولوجية للمقدرة اللغوية المخبأة من خلال منهج تجريبي كالذي دعا إليه لينبرغ فإن النتائج التي يمكن الحصول عليها من خلال تلك الأنظمة ستدحض وتفند المنهج الذي أخذ به كينتش وتثبت بالتالي أن (الفصل الحاد) بين المقدرة اللغوية والإنجاز اللغوي إنما هو إجحاف حاد في البحث العلمي التجريبي .

وتراني أعيد القول بأن مثل هذه المقترحات التي كان كينتش ومعاونوه قد تقدموا بها إنما هي مقترحات ضحلة بل إنه من الصعب تماماً أن نتصورها في حقل العلوم الطبيعية التجريبية .

إنه يمكننا أن نضع فرضية ذهنية معينة تستطيع أن تفنّد ما كان ذهب إليه كينتش . يمكن للمرء مثلاً أن يقترح بأنه إذا طورنا المناهج التجريبية الإجرائية ، فإنه من الممكن عندها أن نشرح الحقائق اللغوية المعنية دون الرجوع إلى دراسات تجريدية مثالية لأنظمة القواعد النحوية المتمثلة في المقدرة أو المعرفة اللغوية للمتكلم والمستمع كما اقترح كينتش . ويمكن للمرء بالتالي إثبات صحة مثل هذه الفرضية . ولكن المشكلة هي أننا يجب ألّا نرفض هذه

الفرضية بشكل عشوائي مسبق كما فعل كينتش . فإذا فعلنا ذلك فإننا سنتجنب معقولية الجدل العلمي ، وبالتالي فإننا سنقترب من الأسلوب الدوغمائي والتزمتي العلمي الذي أخذ به كينتش .

والواقع أن وضع فرضية علمية معينة ثم إثبات خطئها بشكل مسبق ودون وضعها على محك النقد والتجريب إنما هو أكبر خطر دوغمائي تزمتي يمكن أن يهدد ويعرقل البحوث والدراسات العلمية والإنسانية على مدى السنوات المقبلة .

فعلى الرغم من أن كينتش كان قد اعتبر بأن (الفصل الحاد) بين المقدرة اللغوية وبين الإنجاز اللغوي فصلاً متعلقاً بمفهوم تينك الفاعليتين وتعريفهما ، فإن هذا الفصل بين فاعلية المقدرة اللغوية وفاعلية الإنجاز اللغوي يبقى (حاداً) في منهجه وذلك لأن الاهتمام الرئيسي في منهج كينتش هو « دراسة الخصائص المعينة للمستويات المتمثلة في الذاكرة دراسة نظرية وتطبيقية » . وبعبارة أدق ، إن منهج كينتش مهتم بدراسة الجمل اللغوية وتمثيلاتها من الناحية الدلالية والفهمية . لقد اعتبر كينتش هذه الجمل اللغوية وتمثيلاتها عبارة عن تمثيلات خبرية إعلامية . والحقيقة إن هذه الدراسة التي أخذ بها كينتش إنما تمثل وجهاً واحداً من وجوه الفاعلية البيولوجية للمقدرة اللغوية . فقد افترض كينتش أن هناك نظاماً للقواعد النحوية يستطيع أن يولّد هذه التمثيلات الباطنية للجمل الخبرية الإعلامية وذلك تحت شروط معينة . وقد حاول كينتش أن يعرف شيئاً ما عن بنية الإنجاز اللغوي وكيفية عمله وإنتاجه لهذه المستويات التمثيلية للجملة وذلك من أجل فهم مثل هذه المستويات التمثيليّة للجمل اللغوية .

فإذا كان كينتش يعتقد بأن منهجه هذا « لا يعرف الفصل بين المقدرة اللغوية والإنجاز اللغوي » فإنه في الواقع يميل إلى هذا الفصل في طريقة

طريفة توحي بالفعل وكأنه يفرض مثل هذا الفصل . وهذا ليس مستغرباً إذا عرفنا بأن المفاهيم التي عرضها في منهجه ليست مفاهيم متلاحمة ومتماسكة .

أ ـ الدراسات اللسانية البيولوجية وطبيعتها العلمية التجريبية :

الحقيقة أنه إلى هذا الحد أكون قد شرحت القضية الأولى التي توصل إليها إيريك لينبرغ من خلال دراساته البيولوجية للغة . أما الآن أريد أن أناقش القضية الثانية التي توصل إليها لينبرغ .

إن القضية الثانية المتعلقة بالبحث البيولوجي اللغوي تتلخص بالحقيقة القائلة بأن : « اكتشاف الفاعليات والميكانيكيات الفطرية الغريزية للقدرة اللغوية ووصفها وصفاً دقيقاً ، إنما هو عمل بيولوجي تجريبي متمم للمعرفة العلمية » .

هذه الدراسة العلمية التجريبية للفاعليات اللغوية ستقودنا بالتالي لسبر (النحو الكلي) ومبادئه Universal Grammar ثم لسبر المبادىء والأنظمة البيولوجية المتمثلة في الاستعمالات اللغوية وبالتحديد في المقدرة اللغوية الذرائعية[1] Pragmatic Competence والمتمثلة أيضاً في التراكيب الإدراكية التي هي عبارة عن وجه لغوي من وجوه الاستعمالات الفعلية للغة .

والواقع لقد لاحظ لينبرغ أنه من الضروري أن نؤكد على الطبيعة التجريبية للبحث العلمي الذي يحاول معرفة الفاعليات والميكانيكيات الفطرية الغريزية الموجودة في الدماغ البشري . إن هذا التأكيد الذي يصر عليه لينبرغ نابع من الدوغمائية التي سيطرت على البحوث العلمية المتعلقة بالبحث البيولوجي اللغوي تلك الدوغمائية التي حرّمت على الباحثين تناول الفاعليات

---

(١) إن مصطلح الذرائعية Praimatism يدل على الفلسفة الذرائعية الأمريكية التي تتخذ من النتائج العملية مقياساً لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية وصدقها .

البيولوجية ومعرفة كنهها . والواقع ما يزال هناك عدة علماء حتى اليوم يرفضون الاقتراب من البحوث المتعلقة بالفاعليات البيولوجية اللغوية في الدماغ وحجتهم في ذلك أن الفرضية القائلة بوجود الفاعليات اليولوجية اللغوية الغريزية الفطرية بالدماغ إنما هي حيلة ذكية لصياغة بحوث علمية أكثر جديّة وصدقاً . ولكن لينبرغ كان قد أشار إلى أن هذه الحجة ليست مبنية على أساس علمي منهجي بل إنها حجة تحدُّ من انطلاقة الخيال ومغامراته العلمية .

والواقع أن هذا الارتياب والخوف من المغامرة العلمية التي تهدف لسبر الفاعليات والميكانيكيات الفطرية الغريزية الموجودة في الدماغ ما تزال تتلامح في الأفق حتى اليوم . ويبدو لي - مؤيداً بذلك لينبرغ - أن مثل هذه المخاوف ليس لها أي مسوغ علمي . . . بل أستطيع أن أقول أنها « غامضة على أقل تقدير » .

والحقيقة أن هناك آراءً وحججاً عديدة يمكن أن يتعرض لها المرء تلتقي كلها عند هدف واحد وهو نقد المنهج العلمي البيولوجي اللغوي الذي اقترحته في هذا البحث .

إن الفكرة الرئيسية هنا هي أنه ما يزال هناك نقد واعتراض وخوف حول المنهج البيولوجي العلمي الجريء الذي أخذ به لينبرغ ، ذلك المنهج الذي أيدته تأييداً لا يدع مجالاً للشك .

لقد عبّر عن هذه المخاوف والاعتراضات عدد من الفلاسفة المهتمِّين بدراسة طبيعة العلاقات الفلسفية للغات البشرية ثم عدد آخر من علماء اللسان (انظر على سبيل المثال بيرز Peizer وأولمستد Olmsted) وقد كنت أثبت خطل هؤلاء الفلاسفة وعلماء اللسان في مواضع أخرى من كتاباتي . . لذلك لن أتطرق إلى نقدهم مرة أخرى .

ب ـ ما بين تشومسكي ومدرسة جنيف النفسية :

أحب أن أشير إلى أن الاعتراض والنقد الأساسي الذي وجّه إلى المنهج البيولوجي اللغوي الوراثي القائل بوجود فاعليات وآليات غريزية في الدماغ منذ ولادة الطفل إنما كان قدمه علماء النفس الإدراكين وعلماء النفس السلوكين أيضاً .

لنتأمل النقد الذي كان عرضه عالم النفس الإدراكي السويسري جان بياجيه Piaget ومعاونوه . إن حجة بياجيه هي أنه لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نشرح الفاعليات والميكانيكيات الفطرية الغريزية الموجودة في الدماغ البشري شرحاً بيولوجياً أوكما يقال باللغة الإنكليزية (Biologically inexplicable) . فلكي نعرف هذه الفاعليات اللغوية التي لا يمكن شرحها بيولوجياً ، فإن بياجيه يقترح شرحها شرحاً قائماً على أساس من البنية التركيبية التطورية للذكاء الحسي ـ الحركي أو على أساس ما يمكن أن يقال له في اللغة الإنكليزية بـ Sensorimotor intelligence . وبعبارة أخرى فإن بياجيه لا يخالف لينبرغ في مبدأ البحث العلمي من حيث أن هناك فاعلية فطرية غريزية لغوية في الدماغ البشري ولكن يخالفه بالأسلوب والمنهج المستخدم في دراستها . وهكذا ينبغي على المنهج حسب رأي بياجيه ألّا يكون منهجاً بيولوجياً كما اقترح إيريك لينبرغ ، بل يجب أنْ يكون منهجاً متعلقاً بالبنية التركيبية الذكائية ـ الحسية المتطورة من مرحلة إلى مرحلة أخرى خلال نمو الطفل وتطور دماغه .

والواقع لم يقدم بياجيه حجة وبرهنة علمية تدعم منهجه القائل بأن هذه الفاعليات البيولوجية اللغوية إنما هي (غامضة) . وكأننا لا نستطيع أن نبرهن على وجود الشيء إلّا إذا لم يكن غامضاً أو على الأقل مرئياً . وهذا بالضبط يشبه الحجة القائلة بأننا لا نستطيع أن نبرهن على وجود المواد الفيزيائية داخل الشمس ذلك لأنها غامضة لا يمكن رؤيتها هذه الحجج لا تقوم على أساس

علمي فيزيائي تجريبي أبداً .

ويمكنني القول بأن تذمر بياجيه وعدم رضاه عن المنهج البيولوجي اللغوي يمكن أن يكون صحيحاً ولكن على شرط واحد وهو فيما إذا كان بياجيه قد قال بأن الفاعليات الغريزية الفطرية اللغوية في الدماغ إنما هي (غير مشروحة بيولوجياً) أو كما يقال بالإنكليزية : (Biologically unexplained) وذلك بدل قوله السابق : « لا يمكن شرحها بيولوجياً » .

والحقيقة ، ليس هناك أية دلائل في البحوث اللسانية المعاصرة والسالفة تدعم منهج بياجيه وحججه ، إن إصرار بياجيه ومعاونيه على صحة المنهج الذي يتبعونه إنما يشكل مثالاً آخر للدوغمائية والتزمتيّة في العلوم الإنسانية .

هذه الدوغمائية والتزمتيّة العلمية تتجلى بشكل أوضح في الأعمال والبحوث التي قام بها تلامذة بياجيه . لنأخذ على سبيل المثال المناقشات والحجج التي عرضها انهلدر Inhelder وسنكلير Sinclair ثم بوفت Bovet . لقد

هذه الدوغمائية والتزمتيّة العلمية تتجلى بشكل أوضح في الأعمال والبحوث التي قام بها تلامذة بياجيه . لنأخذ على سبيل المثال المناقشات والحجج التي عرضها انهلدر Inhelder وسنكلير Sinclair ثم بوفت Bovet . لقد
اقترح هؤلاء الباحثون ومن خلال استشهادهم بأعمال بياجيه بأنه « ليس هناك معرفة إنسانية سابقة للتطور الذكائي الحسي ، وبعبارة أخرى ليس هناك أفكار غريزية فطرية وراثية لغوية في دماغ الطفل تلد عند ولادته اللهم باستثناء بعض الأشكال الوراثية البدائية جداً والتي تمكّن الطفل من معرفة الموضوعات الخارجية . هذه الأشكال الوراثية البدائية قابلة للتطور والنضج الفكري حسب مراحل مختلفة من نمو الطفل وترعرعه . وهكذا ليس هناك على حد تعبيرهم ـ فاعلية نظامية كاملة للعملية اللغوية في دماغ الطفل ، فليس هناك سوى هذا الشكل الذي ينمو ويتشكل خلال نمو الطفل ونشاطه .

والواقع إن هذه المقترحات والحجج التي أتى بها تلامذة بياجيه إنما هي غامضة بحيث يصعب علينا تحديدها ومعرفة مغزاها . فإذا أخذنا على سبيل المثال الفرضية التي يسمونها بفرضية (البنية التطورية) فإننا نجد أنهم يدعون أن الضوابط النحوية كقيد الجزيرة الميميّة Wh-Island والمبادىء الأكثر عمقاً في العملية اللغوية والتي يستند عليها مثل هذا الضابط النحوي ينبغي أن تكون ظاهرة في النشاط اللغوي للطفل .

إنه ينبغي على ظهورها أن يشبه تماماً ظهور التراكيب اللغوية الأخرى الناتجة عن الفاعلية الحسية الحركية المبكرة للطفل . الحقيقة أن ادعاء هذه المقترحات الحسية والإصرار على صحتها دون تقديم أي شاهد أوحجة تدعمها إنما يعتبر شيئاً غريباً في البحث العلمي . ويمكن أن نرى هذه المقترحات التي لا تستند على أية حجة أوبرهان علمي في مدرسة جنيف النفسية . وهكذا فإننا نجد أن أحد روّادها انهلدر يتفق مع بياجيه بأن منهج التطور الذكائي للقدرات العقلية هو المنهج السليم لمعرفة النظام النحوي عند الأطفال . إن كل ما فعله المنهج البيولوجي للفاعلية الفطرية الغريزية الوراثية على حد تعبير انهلدر هو أنه مذ حوّل منهج الدراسة من المستوى النفسي إلى المستوى البيولوجي . والحقيقة إذا كان لهذه لحجة التي أتى بها انهلدر أي فضيلة أو قوة واستحقاق فإنها ينبغي أن تطبق بالمعيار نفسه على المستويات المعيارية للتطور الفيزيائي أيضاً . لنفترض أن أحدهم أثبت أن الإنسان هو ثنائي العينين ثم إنه يطور ذراعين بدل جناحين وذلك بشكل وراثي فإن مثل هذا الافتراض والإثبات لن يساعد على معرفة البنية التطورية وفاعلياتها الموروثة من وجهة نظر مدرسة جنيف النفسية . إنه فقط سيحول المسألة من مستوى نفسي إلى مستوى بيولوجي . وهكذا فإن هذا الافتراض والإثبات لن يفيد شيئاً ولن يثبت أي حقيقة تتعلق بالتطور الفيزيائي للإنسان . فإذا كانت بنية الرؤية الإنسانية تقوم على أساس ثنائي بشكل وراثي (كما أعتقد) فإنه من

الطبيعي عندئذ أن نبحث عن أصل هذه البنية ثم شرحها بعبارات بيولوجية تطورية نشوئية وهذا بالطبع أفضل بكثير من الناحية العلمية من أن نشرحها بعبارات بيداغوجية تعلميّة .

وبعبارة أخرى ينبغي علينا أن نحوّل البحث المتعلق بمعرفة الفاعليات الميكانيكية في الدماغ البشري من دراسة نفسية إلى دراسة بيولوجية تشريحية .

والواقع يمكننا دراسة الكمبتة العلائقية الناتجة عن البنية الدماغية بنفس المعيار البيولوجي ، وهكذا فإنه يمكننا سبر التراكيب الإدراكية لهذه البنية الدماغية ثم دراسة الميكانيكيات الفيزيائية المستترة داخل هذه التراكيب .

وهكذا فإذا وجدنا شاهداً مكثفاً يستطيع أن يثبت أن المبادىء التي تقوم عليها الضوابط النحوية كالضابط النحوي Wh-Island فعندئذ لا يبقى أي مجال للشك بأن هذه الميكانيكيات والفاعليات الدماغية هي وراثية وبالتالي فإنه ينبغي أن ندرسها ضمن إطار بيولوجي تشريحي .

وهكذا نجد أن المنهج التطوري الوراثي الذاتي الذي نأخذ به والذي يفترض بأن المبادىء والقدرات العقلية هي (نظام آلي منظم لذاته) ، إنما هو منهج متفق مع منهج (البنية التطورية) ، الذي أخذت به مدرسة جنيف النفسية . فإذا كان ذلك كذلك فإنني لا أستطيع تفسير مدرسة جنيف إلاّ على هذا الأساس وإن كانت الحجج والبراهين التي أتت بها لا تقف أمام النقد التجريبي العلمي .

على أية حال ، إن مدرسة جنيف النفسية تشكل فصلاً آخر من فصول الدوغمائية التزمتيّة في التاريخ الحديث . ولكن هذا لا يعني بأنني أقترح بأن كل ما أتى به علماء النفس المنتمين إلى مدرسة جنيف هو خطأ وغير صائب ، على العكس من ذلك ، إنني فقط أتساءل لماذا يؤكد هؤلاء العلماء بأن كل ما أتوا به

هو الصحيح . ثم إنني أتساءل كيف يمكن لهؤلاء العلماء أن يقبلوا بمنهج التطور الذكائي للقدرات العقلية الذهنية ثم في الوقت نفسه يرفضون منهج التطور والنحو الفيزيائي لأعضاء الجسم الإنسانية .

وباختصار ، لماذا يجب أن تكون المناهج والفرضيات المتعلقة بالمعرفة العلمية الفيزيائية للتطور الإنساني محظورة وممنوعة على الباحثين ثم في الوقت نفسه نسمح لأنفسنا بقبول المناهج والفرضيات المتعلقة بالمعرفة العقلية وتطور قدراتها الإدراكية ؟

جـ - ما بين تشومسكي والمدرسة النفسية الروسية :

وأخيراً أريد أن أتعرض للمنهج اللساني النفسي الذي تبناه العالم الروسي المشهور آ - لوريا A. R. Luria الذي يعتبر قطباً من أقطاب علم النفس العصبي الروسي . لقد أكّد هذا العالم بأن التعليل والشرح العلمي الهادف لمعرفة أصل القواعد النحوية الكلية أو إذا أردنا الدقة . . . أصل القواعد النحوية الكلية التي تعمل عليها الضوابط النحوية Wh-Islands إنما يمكن (في تاريخ مجتمعنا ثم في الأشكال النشيطة لعلاقات الإنسان بالواقع) .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه على آ - لوريا هو التالي : كيف يمكن لمبادىء النحو الكلي أن تنبثق من خلال هذا الإطار الذي اقترحته ؟ إن آ - لوريا لا يقدم أي جواب على ذلك ولو حتى بطريقة غامضة أو مفترضة . إن آ - لوريا يشبه في هذا المجال عالم النفس السويسري بياجيه ومعاونيه ، عندما دافعوا عن مناهجهم بحجة غير علمية . إن حجة آ - لوريا القائلة بأن هناك مبادىء معينة من القواعد الكلية المحددة بشكل وراثي يجعل هذه الحجة خارجة عن المشكلة التي نحن بصددها .

وهذا يعني بحد ذاته أن أيّ شرح أو تعليل مستمد من إطار خارجي لن

يقودنا إلى أي نتيجة علمية . وتراني أكرر مرة أخرى لأقول بأن منهج آ ـ لوريا الداعي إلى دراسة الفاعلية الفطرية الغريزية الوراثية في الدماغ بإطار علائقي يربط الإنسان بالواقع إنما لا يستند إلى أية حجة أوبرهان علمي وذلك لسبب بسيط وهو أنه إذا كان ما يقوله صحيحاً فإن هذا ينبغي أن يُطبق على التطور العضوي الفيزيائي للإنسان الذي هو تطور خارج عن علاقة الإنسان بواقعه . والواقع إن حجة آ ـ لوريا في شرح الفاعلية العقلية يشبه تماماً تلك الحجة التي تقول بأن للإنسان ذراعين لا جناحين . إن التطور الفيزيولوجي لذراعي الإنسان إنما يعود إلى شكل وراثي . إن هذه الحجة لا تقدم أي إثبات علمي بل إنها لن تقود العالم الفيزيولوجي إلى أي مكان .

فإذا كان آ ـ لوريا لم يقدم أي اقتراح وتعليل علمي لمعرفة البنية البيولوجية الوراثية للقدرات العقلية فإنه لا خيار لنا بعد ذلك إلاّ أن نفسر ونعلل حجته التي أتى بها على النحو التالي :

إن التطور والنحو الإدراكي للقدرات العقلية هو تطور مختلف بشكل جوهري عن التطور والنحو العضوي الفيزيائي . . أي إن هذا التطور للقدرات العقلية هو تطور غير وراثي ، وهكذا فإنه منفصل عن علم البيولوجيا حسب منهج آ ـ لوريا ، بالإضافة إلى ذلك يقترح آ ـ لوريا عدة مقترحات تجريبية تتعلق بالخطوات التي (يجب) أن نؤمن لها ثم بالخطوات التي تقودنا إلى الموضوع الذي (يجب) علينا أن ننظر فيه وذلك من أجل معرفة الأصول التي يرتكز عليها النحو الكلي والظاهرة اللغوية بشكل عام . وبعبارة أدق ، إن منهج آ ـ لوريا (يفرض) علينا بأنه من الواجب أن ننظر في العلاقات الجدلية بين الموضوع النشيط وبين الواقع ، وليس في العلاقات التي تجري داخل في الدماغ البشري نفسه .

وهكذا يمكن للمرء أن يلاحظ أن منهج آ ـ لوريا لا يقدم أية

إشـارة أو حجـة لمثـل هذا الادعـاء الـذي أتى به بل على العكس من ذلـك إن منهجـه حسب رأيـه يجب أن يكـون صائبـاً ، ويمكننـا أن نستنتـج أن مثل هذا الادعــاء هو ادعـاء سطحي غير ضروري وذلـك لأنـه لا يستنـد إلى الحقـائق العلمية . فإذا أخذنا بهذا المنهج الذي يدعو إليه آ ـ لوريا فعندها يجب علينا أن نفـترض ودون تجربـة علميـة بأن منهجـه سيبيّن لنـا بأن الضـابـط النحـوي Wh - Island المستنـد على مبـادىء النحـو الكـلي للغـات إنـما هو ضابـط نحوي يكتسبـه الطفـل من خلال (العـلاقـة الجـدلية النشيطة بين الموضوع الخارجي والـواقـع المحيـط به) ، أو بعبـارة أخـرى من خلال (الانعكـاس الـواقعي في الموضوعات الخارجية) .

ويستطيـع المـرء أن يلاحظ أن إشارة آ ـ لوريا إلى (**تاريخ مجتمعنا**) إنما هي إشـارة جوهـريـة في المنهج الـذي يدعـو إليه . . . **وهذا يعني أن اللغة هي فاعليـة لغـويـة يحددها المجتمع وعلى الطفل أن يكتسبها من خلال هذا الإطار الاجتماعي** . والغريب في الأمر أن آ ـ لوريا اعتبر منهجه (**منهجاً علمياً لا يتتابه الشك**) . وهكذا يمكننا أن نسجل فصلاً آخر من فصول الدوغمائية المتزمتة في العلوم الطبيعية .

والـواقـع أن كل هذه المنـاهـج الدوغمائية التزمتيّة التي عرضتها إنما تثبت حقيقـة واحـدة وهي أن إيـريـك لينبرغ كان على صواب تام عندما أكد بأن : « وصـف الفـاعليـات والميكـانيكيـات الفطرية الغريزية الوراثية للغة في الدماغ البشـري إنـما هو طريقة تجريبية مرتبطة بالمعرفة العلمية الحديثة » . بل أستطيع أن أضيـف أكثـر من ذلـك لأقـول بأنه لا مجال لأي شكل من أشكال الدوغمائية والتـزمتيـة المفـروضـة بشكـل مسبق في البحـوث العلميـة التجريبية الحديثة . والحقيقـة أنـه ليس من السهـل لكثير من الباحثين حتى اليوم أن يتقبلوا البحث العلمي التجـريبي الحـديث طالما اعتادوا على الدوغمائية والتزمت في البحوث

المتعلقة بالدماغ وقدراته العقلية الإدراكية . وتزداد المأساة تراجيدية عندما ندرك بأن كثيراً من العلماء كانوا قد أجبروا على مشايعة مثل هذه الدوغمائية والتزمت العلمي بغض النظـر عن مذاهب هؤلاء العلماء التي يمكن أن تكون مذاهب نفسية سلوكية أو مذاهب بنوية تطورية أوما أشبه ذلك .

والـواقـع أن الاعتقـاد الـذي يؤمن به آ ـ لوريـا والقـائل بأن : « البنى الـتركيبيـة المـوجـودة في الـدمـاغ البشـري إنـما هي انعكـاس للعلائق الجدلية المتداخلة بين الموضوع النشيط وبين الواقع الخارجي » إنما هو اعتقاد يرجع إلى مذهب أكثر شمـوليـة ذلـك المـذهب يعـرف بـ (المـذهب السلكولاستيكي) Scholastic doctrine ذلـك المـذهب الـذي لا يسمـح بأي تغيير أو تبديل وتطوير يمكن أن يطـرأ عليـه (بالـرغم من أن آ ـ لوريـا كان قد اقترح بأن منهجه أكثر انفتاحاً من الإطار الأيديولوجي الماركسي) .

ويمكننـا أن نقـول بأن بعض التجـارب المطبقـة على البنيـة البيـولوجية لعمليــة الـرؤ يـة ولعمليـة الإدراك عنـد بعض الفصـائـل الحيـوانيـة الـذكيـة (كالشمبـانـزي) إنـما سيسـاعد على التغلب على مثل هذه العوائق والحواجز ويحـد من محدوديـة البحث البيـولـوجي . وهـذا بالطبـع سيمكن عالم اللسان البيولوجي من معرفة البنية البيولوجية اللغوية عند هذه الفصائل الحيوانية والتي بدورها ستعمق فهمنا لطبيعة البنية البيولوجية اللغوية عند الفصائل الإنسانية .

إن الـدراسـة البيـولوجية لأنظمة المقدرة اللغوية التجريدية عند الإنسان ستقدم نتائج ممتازة وعطاءات زاخرة في المستقبل يمكن لها أن تعرّفنا على طبيعة العلاقات والكمبتات والميكانيكيات العاملة في هذه المقدرة اللغوية .

والحق يقـال لقـد طور إيـريـك لينبر ج المناهج البيولوجية اللغوية تطويراً رائعـاً بحيث يمكنهـا أن تقـدم نتـائـج واعـدة في هذا الحقـل . إن هذا التطوير

البيـولـوجي سيسـير جنبـاً إلى جنب مع التطـوير الذي تم في حقول عديدة من المعارف البشرية والتي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالدراسات اللسانية البيولوجية .

وبـاختصـار ، إن دراسة الأسس البيولوجية للغات الإنسانية ستثبت أنها من أهم ما انتهى إليه العلم الحديث في السنوات المقبلة .

أدريان هنري :

شاعر شعبي من ليفربول

• د. سليمان محمد أحمد

تمهيد :

بدأت فكرة هذا الموضوع منذ أكثر من عشر سنوات ، في سنة ١٩٧٢ تحديداً . كنت يومها في السنة الأولى من دراستي العليا في جامعة ليفربول . في يوم أحد في شهر نيسان زرت معرض جون مورز الثامن في متحف ووكر للفن . وفي ذلك المعرض نال الجائزة الثانية (وقدرها ألفا جنيه) فنان من ليفربول هو ادريان هنري . وقد أثار هنري اهتمامي عندما قرأت في دليل المعرض أنه ليس رساماً فحسب ، وإنما شاعر وقطب رحى في الحياة الفنية في المدينة . في الأسبوع التالي قرأت بعض قصائده ، في مجموعة شعرية شاركه فيها شاعران ليفربوليان آخران هما روجر ماكغف وبراين باتن . عنوان المجموعة **صوت الميرزي** ، والميرزي هو النهر الذي تقع عليه ليفربول[١] .

---

(١) تحمل المجموعة رقم ١٠ في سلسلة (شعراء بنغوين الحديثون) صدرت الطبعة الأولى في ١٩٦٧ وأعيد طبعها في ١٩٦٨ (مرتين) و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ (مرتين) و ١٩٧١ و ١٩٧٣ . ثم صدرت طبعة ثانية موسعة ومنقحة في ١٩٧٤ عن دار نشر بنغوين في هارموندزورث .

أطلق النقاد على هؤلاء الشعراء الثلاثة اسم (الشعراء الشعبيون) (The pop Poets) . وظاهرة (البوب) في الشعر الإنكليزي تعود إلى الستينات من هذا القرن[٢] وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمدينة ليفربول . يقول روجر ماكغف : « الظاهرة في اعتقادي ليست ظاهرة ليفربولية بالمقارنة مع ظاهرة في برمنغهام أو ظاهرة في نيوكاسل ، وإنما هي ظاهرة ليفربولية بالمقارنة مع ظاهرة في لندن أو ظاهرة في العاصمة أو ظاهرة متصلة بالمدارس الخاصة . أنت أكثر انشغالاً وتعلقاً بالمكان ، أنت أكثر انشغالاً وتعلقاً بالمدينة في ليفربول من انشغالك وتعلقك بلندن مثلاً »[٣] وليفربول ، التي وصفها أحد الإعلانات بمدينة التغير والتحدي ، تنظر إلى نفسها كشيء متميز : في الشعر ، في الموسيقا ، في كرة القدم . وفي الستينات قال عنها الشاعر الأمريكي آلن غينزبرغ : « إنها في الوقت الحاضر مركز الشعور في عالم الإنسانية . إنهم يبعثون الشكل الإنساني الإلهي هناك ـ أولئك الفتية الوسيمون بشعرهم الطويل الأشقر الملائكي »[٤] وغينزبرغ يشير هنا إلى البيتلز ـ جون لينن وبول ماك كارتني ورينغو ستار . وكما قال هنري ، كان هؤلاء : « أول ظاهرة ثقافية من أي نوع تصل إلى الشهرة خارج لندن »[٥] . وكان لشهرتهم أثر عظيم على الثقافة المحلية في انكلترا كلها ، لا في ليفربول وحدها ـ وبالطبع أصاب الشعراء في ليفربول نصيب من ضوء شهرتهم ومجدهم[٦] .

---

(٢) انظر تعليق ادوارد لوسي ـ سميث في كتاب (**شعراء معاصرون**) تحرير جيمس فينسن ، طبعة ثانية (لندن : ماكميلان ، ١٩٧٥) ص ٦٧٤ ، ١٠٢٢ ، ١١٧٢ .

(٣) ادوارد لوسي سميث (محرر) ، **المشهد الليفربولي** (١٩٦٧ ؛ لندن : راب وايتينغ ، ١٩٧١) ص ٢٠ ، الكتاب مهدىً (إلى البيتلز) .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢١

(٦) المصدر نفسه ، ص ٤

أخذ الشعراء الثلاثة الشعر إلى الجمهور : في الحان ، في قاعات الحفلات ، في الجامعة ، في النوادي . . يقول هنري : « أصبح لنا نوع من الجمهور يتبعنا ، أناس معظمهم في مرحلة المراهقة أو في أوائل العشرينات ، ومعظمهم من غير المثقفين . . . »[٧] ، ويقول ماكغف : « في قراءتنا ليلة كل اثنين في حانة سامسن وبارلو ، لم تكن الشبيبة تنظر إلى ما نقرأ على أنه شعر بالمعنى الدقيق للكلمة ، كانوا يرونه فيه تسلية حديثة ، جزءاً من حركة (البوب) ربما غادروا الحانة باكين أو حزينين جداً ، ولكن حضورهم كان خبرة معينة بالنسبة لهم ، جزءاً من الخبرة الإنسانية »[٨] ، هذا يعني أن تأثير شعر هؤلاء يعود إلى كونه مسموعاً لا مقروءاً . إن القصيدة عندهم : « لم تعد شيئاً مصنوعاً وإنما خدمة ؛ إنها وسيلة لا غاية » والتأثير الذي تحدثه القصيدة أكثر أهمية بالنسبة لهم من القصيدة نفسها . من هنا لم تعد القصيدة السيئة جرماً بالضرورة . فالمهم في نظرهم صدق العاطفة[٩] .

- ٢ -

يعتبر ادريان هنري النموذج الأمثل للشاعر (الشعبي) بين شعراء الستينات في ليفربول[١٠] فلنقرأ معاً بعضاً من قصائده مترجمة لنرى خصائص شعره . ولكن قبل كل شيء دعني أبدأ بالتعريف به .

ولد ادريان هنري في بيركنْهيد (التي تقابل ليفربول على الضفة الثانية لنهر الميرزي) في العاشر من نيسان سنة **١٩٣٢** م لأسرة فقيرة . كان والده

---

(٧) المصدر نفسه ، ص ٧٨

(٨) المصدر نفسه ، ص ٧٨

(٩) المصدر نفسه ، ص ٧ - ٨

(١٠) جيمس فينس (مج) ، **شعراء معاصرون** ، ص ٦٧٢ - ٦٧٤

موظفاً حكومياً صغيراً ذا دخل محدود . تلقى ادريان تعليمه الثا... في مدرسة سينت آصف في شمال ويلز (١٩٤٥ - ١٩٥١) ثم ذهب إلى ... الملكية في نيوكاسل (وهي إحدى كليات جامعة دَرهام) ، حيث حصل على الإجازة في الفنون الجميلة بمرتبة الشرف سنة ١٩٥٥ . وأثناء دراسته الجامعية كان يعمل في العطلة في مدينة للملاهي لينفق على نفسه في الشتاء . تزوج سنة ١٩٥٨ من جويس ويلسون ، ولكنهما افترقا . (انظر قصيدة « مَنْ » ؟) .

عمل هنري مدرساً في كلية مانشستر للفن والتصميم (١٩٦١ - ١٩٦٤) وفي كلية ليفربول للفن (١٩٦٤ - ١٩٦٨) . وفي سنة ١٩٦٨ شكل فرقة (ليفربول سين) للشعر والغناء والموسيقى وقام بجولة مع الفرقة في أمريكا (١٩٦٩) . وفي سنة ١٩٧٠ انفرط عقد الفرقة نتيجة إصابة هنري بمرض في القلب . وقد اشترك في معارض فنية عدة في ليفربول وبلفاست وميلانو ولندن ، ونال جائزة مجلس الفنون في ايرلندا الشمالية (١٩٦٤) وجائزة معرض جون مورز في ليفربول (١٩٧٢) .

كتب هنري الشعر والمسرحية والرواية . فأعماله الشعرية تشمل **صوت الميرزي** الذي ذكرناه سابقاً ، **هذه الليلة عند الظهيرة** (١٩٦٨) ، **المدينة** (١٩٦٩) **سيرة ذاتية** (١٩٧١) ، **أمريكا** (١٩٧٢) ، **أسيجة المدينة : قصائد ١٩٧٠ - ١٩٧٦** (١٩٧٧) **ومن الموتيل غير المحبوب : قصائد ١٩٧٦ - ١٩٧٩** (١٩٨٠) . وله مسرحيتان : **أتساءل** ، بالاشتراك مع مايكل كوستو (١٩٦٨) والمسرحية التلفزيونية **فتاة البارحة** (١٩٧٣) . كتب أيضاً رواية **أريد** بالاشتراك مع نل دن (١٩٧٢) وكتاب **بيئات وأحداث** (١٩٧٤) .

ومن تسجيلاته (بالاشتراك مع فرقة « ليفربول سين ») **شركة سنت ادريان وبرودواي والشارع الثالث** (آرسي اي ، ١٩٧٠) **هيرلون** (آرسي

اي ، ١٩٧٠) ، وذكـريـات (كاريـزمـا ، ١٩٧٢) وسـيرة ذاتيـة (كانن ، ١٩٧٤ ، اسطوانتان)[١٠] .

يقـول هنـري : « إنني أعتـبر نفسي صانعـاً ومقـدمـاً للصـور بوسـائط مختلفة . وأعتقد أن الشاعر الشعبي أكثر القابي شيوعاً . . . »[١١] .

« ليس بإمكانك أخذ لوحاتي وترك قصائدي . ولكنني لم أقصد أبداً أن يكـونـا مكملين أحـدهما للآخـر . . . إن الشعر أكثر كفاءة من الرسم بكثير ، كأداة للاتصـال . فالـرسم يؤدي عمله بشكل مختلف تماماً . الشعر ، بالشكل الـذي أكتبـه في الـوقت الحاضر ، يلقى إلقاء . إنه يشبه الهاتف ، كما تعرف ، والهاتف جهاز اتصال يتصف بالكمال . تضع الرسالة في طرف فتمر وتخرج من الطرف الآخر . الشعر مثل ذلك !

« إنني آخذ قيمي من الرسم . وأقرأ الشعر قراءة هاوٍ . لقد أحببت دوماً إلقاء الشعر ، ولكنني درست الرسم في الجامعة . والفرق بين الرسم والشعر في رأيي هو أن الرسم يشبه جهازاً للإذاعة . فالرسالة ترسل ولكنك لا تعرف عن استقبالها شيئاً . ولكنك تعرف في حالة الشعر ـ الشعر المحكي على الأقل ـ أن هناك من يتلقى شعرك على الطرف الآخر من الهاتف . الرسم عمل في عزلة : تقوم به في تلك الغرفة ثم تؤخذ اللوحة ، تؤخذ إلى صالة للفن في مكان ما أو إلى بيت أحـدهم . ثم لا تعلم أبـداً كيف يستجيبـون لها فعـلاً . ليس عندك وسيلة لمعـرفـة تأثير لوحـاتـك على الناس . أما عندما تقرأ قصائد أمام جمهور فإنك تعرف هل أحبوها أم لم يحبوها . . . ؟!

« تأثـرت بالشـاعـرت . س . اليـوت وابـوللنـير ومـالارميـه وغينزبرغ

---

(١١) المصدر نفسه ، ص ٦٧٤

(١٢) لوسي ـ سميث (مج) ، المشهد الليفربولي ، ص ٧١

وأولسن ، وفي الفترة الأخيرة بتنيسن وكريلي وهيوماكديرميد . كذلك تأثرت بنثرجويس وويليام بَرز . إنني شاعر ذاتي : قصائدي امتداد لحياتي ، بعضها حقيقة وبعضها خيال . ولذا أكتب قصائد الحب أكثر من غيرها .

تثير ني الاستعمالات الجديدة للغة في أجهزة الإعلام ، كما في الإعلانات التجارية في التلفزيون أوفي أغنيات (البوب) ، أما اهتمامي بأشكال الشعر (الأقدم) (القافية وغيرها) ، فمقصور على ما استمر منها في الحياة في المجتمع الحديث : الأغنية الشعبية (البالاد) على سبيل المثال والبلوز ، بشكل خاص »[١٣] .

في عام ١٩٧٤ كتب هنري يقول : « تغيرت طريقة حياتي وإلى حد ما طريقة عملي بعد إصابتي بمرض خطير في القلب سنة ١٩٧٠ . ربما كان شعري الآن أكثر هدوءاً وأكثر تقليدية ، وبعد قضائي بعض الوقت في مقاطعة سمرست وشروبشير أخذت أهتم بشعر الطبيعة الإنكليزي ، وبخاصة شعر وردز ورث وهاوسمان وبرسامي مدرسة ما قبل الرفائيلية »[١٤] .

---

(١٣) فينسن (مج) ، **شعراء معاصرون** ، ص ٦٧٤ البلوز نوع من الأغنية الحزينة ، أمريكية زنجية الأصل .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٦٧٤ . مدرسة ما قبل الرفائيلية مدرسة فنية انكليزية أنشأتها حوالي ١٨٥٠ مجموعة من الفنانين والنقاد تضم ويليام هولمان هنت وجون افريت ميلي ودانتي غابرييل روزيتي وتوماس وولنر وجيمس كولينسن . سعى هؤلاء للعودة إلى الأشكال الفنية المستعملة قبل عهد رفائيل (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠) ولإضفاء الصبغة الأخلاقية على فنهم بدراسة الطبيعة دراسة دقيقة واختيار موضوعات نبيلة ترفع مستوى المشاهد . انظر **دليل اكسفورد إلى الأدب الإنكليزي** ، جمعه وحرره السير بول هارفي ، طبعة رابعة نقحتها دورثي ايفل (اكسفورد : مطبعة كلاريندن ، ١٩٦٩) ص ٦٦٢

- ٣ -

مختارات ١٥

هذه الليلة عند الظهيرة ١٦

(مهداة إلى تشارلز منغيس وفرقة كلاتيون سكوير)

هذه الليلة عند الظهيرة
ستعلن المتاجر الكبرى زيادة ثلاث بنسات على كل سلعة
هذه الليلة عند الظهيرة
سيُرسَل أطفال العائلات السعيدة ليعيشوا في ملجأ
ستروي الفيلة أحدها للآخر نكاتاً إنسانية
ستعلن أمريكا السلام على روسيا
سيبيع جنرالات الحرب العالمية الأولى أزهار الخشخاش في الشوارع
في الحادي عشر من تشرين الثاني
ستظهر أولى أزهار النرجس البري الخريفية
عندما تسقط الأوراق باتجاه الأعلى عائدة إلى الأشجار

---

(١٥) القصائد مأخوذة من الدواوين التالية : **هذه الليلة عند الظهيرة** (١٩٦٨) : (هذه الليلة عند الظهيرة) ، (أريد أن أرسم) ، (من ؟) ، و (إعلانات تجارية للقنبلة) ، **أسيجة المدينة** (١٩٧٧) : (في ساعة منتصف الليل) و (زمن الحرب) ، من **الموتيل غير المحبوب** (١٩٨٠) : (قصيدة أيلولية) .

(١٦) عنوان القصيدة مأخوذ عن أسطوانة لتشارلز منغيس ، **هذه الليلة عند الظهيرة** (اتلانتيك ، ١٤١٦) ـ الشاعر .

هذه الليلة عند الظهيرة
ستصطاد الحمائم القطط في حدائق المدينة الخلفية
سيقول لنا هتلر أن نقاتل على الشواطىء وحقول الإنزال
سيحفر نفق مليء بالماء تحت ليفربول
ستشاهد الخنازير طائرة في تشكيل فوق ولتون
سيستعيد نلسون عينه وذراعه أيضاً
سيتظاهر الأمريكيون البيض من أجل المساواة في الحقوق
أمام البيت الأسود
والمسخ خلق لتوه د . فرانكنشتاين

الفتيات لابسات البيكيني يأخذن حمام قمر
الأغنيات الشعبية يغنيها أناس من الشعب حقاً
متاحف الفن مغلقة أمام من تجاوزوا ٢١
يدخل الشعراء قصائدهم قائمة أعلى ٢٠ أغنية مبيعاً
السياسيون ينتخبون لمشافي المجانين
هناك عمل لكل امرىء ولا أحد يريد عملاً
في الشوارع الخلفية وفي كل مكان العشاق المراهقون يقبلون
في وضح النهار
في مقابر منسية وفي كل مكان سيدفن الموتى
الأحياء بهدوء
و
ستقولين لي إنك تحبينني

هذه الليلة عند الظهيرة ١٧

أريد أن أرسم

القسم الأول

أريد أن أرسم
٢٠٠٠ طائر ميت مصلوبة خلفها الليل
أفكاراً عميقة بحيث لا تستجرها الدموع
أفكاراً عميقة بحيث لا يفهمها الشواذ
أفكاراً تسير بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل / ثانية
دخولَ المسيح إلى ليفربول في ١٩٦٦

---

(١٧) الحادي عشر من تشرين الثاني هو يوم الذكرى في بريطانيا ، ذكرى الذين ماتوا في الحربين العالميتين . فالحرب العالمية الأولى انتهت في الساعة الحادية عشرة صباحاً يوم الحادي عشر من تشرين الثاني (١٩١٨) . ولذا تقرر أن يكون هذا اليوم يوم ذكرى يقف الناس فيه دقيقتي صمت في الساعة الحادية عشرة . وزهرة الخشخاش أصبحت مرتبطة بهذا اليوم لرمزها لمأساة الحرب . فقد مات الملايين في القتال في شمال فرنسا وتدمرت المحاصيل . ولكن أزهار الخشخاش الحمراء ازدهرت . وأزهار الخشخاش الاصطناعية تباع في الأسبوع السابق ليوم الأحد القريب من ١١ تشرين الثاني لمساعدة ضحايا الحرب .

ولتون حي من أحياء ليفربول . نلسون : ادميرال وبطل بريطاني قتل في معركة الطرف الأغر (١٨٠٥) .

فرانكنشتاين : في قصة ماري شيللي بهذا الاسم (١٨١٨) بالطبع فرانكنشتاين هو الذي خلق المسخ . (المترجم) .

تنصيبَ روجر ماكغف أستاذاً للشعر في أكسفورد
فرنسيس بيكون يلقي خطبة الرئيس في حفل عشاء الأكاديمية الملكية

أريد أن أرسم
٥٠ لوحة بالحجم الطبيعي لماريان فيثفول عارية
(كلها مرسومة من الطبيعة)
فتياتٍ ويلزيات عند شلالات ويلزية
هزر هولدن كعذراء هزلنغدن
لوحةً بحجم بيكاديللي مليئة بأنوار النيون والباصات
وزينــات عيــد الميلاد والفتيـات الجميـلات اللواتي يظللن وجـوههن بشعرهن الأشقر الداكن

أريد أن أرسم
اغتيالَ العائلة المالكة بأسرها
لوحاتٍ ضخمة لبلاطات رصيف شارع كانينغ كلها
البيتلز يؤلفون نشيداً قومياً جديداً
براين باتن يكتب قصائدَ بقاذف لهب على معديات مهجورة
كاتدرائية جديدة ارتفاعها ٥٠ ميلاً مبنية بأكملها من عجلات عربات الأطفال
علبة وودباين فارغة مغطاة بالقبل
أريد أن أرسم
لوحة من دموع الأطفال ذوي الوجوه الوسخة في شارع تشاتام
أريد أن أرسم
أ ح ب ك على درجات قاعة القديس جورج
أريد أن أرسم

لوحات

القسم الثاني

أريد أن أرسم
وجوهَ الموت التاريخية والمتزامنة
١٠٠٠٠ قلب وردي مروّع اسمك عليها
سعاةَ البريد السود الوهميين الذين يحضرون المال لي في أحلامي
أولَ زهرة نرجس برية بلاستيكية في الربيع تشق طريقها
عبر علب أومو في المتجر الكبير
صورة كل طالبة شهادة ثانوية في البلاد
خارطةً كبرى للعالم أنت في مركزها
زهرَ مضعف ضخم كل زهرة على لوحة مستقلة

أطفالاً من الهلام بالحجم الطبيعي بشكل هيلي ميلز
علماً أسود وأحمر يخفق فوق البرلمان
أريد أن أرسم
كل صدام للسيارات على طرق انكلترا
الأب أويو سكران في الساعة ١١ ليلاً في شارع لايم
ج ن و ن أ م ن ظُ م أ ل ج م ي ع ا ل ح و ا س
بحروف سوداء متصلة بارتفاع ٥٠ ميلاً فوق ليفربول

أريد أن أرسم
لوحات يستطيع الأطفال أن يلعبوا بها لعبة الحجلة
لوحات يمكن استعمالها دليلاً في محاكمات القتل

لوحات يمكن استعمالها للدعاية لرقائق الذرة المحمصة
لوحات يمكن استعمالها لإخافة الأطفال العابثين
لوحات تساوي وزنها مالاً
لوحات يستطيع المتشردون العيش فيها
لوحات يجدها الأطفال في جواربهم صباح عيد الميلاد
لوحات يستطيع العشاق المراهقون تبادلها فيما بينهم
أريد أن أرسم
لوحات ١٨

---

(١٨) في عام ١٩٦٦ دشنت الكاتدرائية الكاثوليكية في ليفربول باسم كاتدرائية المسيح الملك .

من الممتع أن نذكر أن روجر ماكغف انتخب زميلاً للشعر في جامعة لفبره للتكنولوجيا (١٩٧٣ ـ ١٩٧٥) .

فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) فيلسوف ورجل سياسة وأديب إنكليزي ، له الفضل في إدخال الطريقة الاستنباطية إلى ميدان العلوم .

ماريان فيثفول ملكة جمال ، وهزر هولدن شاعر ليفربولية . وهزلنغدن بلدة تقع على بعد ٣٠ كم شمال غرب مانشستر . بيكاديللي ساحة في لندن مشهورة ، شارع كانينغ شارع في ليفربول ٨ كان هنري يسكن فيه في الستينات . وودباين نوع من السجائر . شارع تشاتام شارع قريب من شارع كانينغ . قاعة القديس جورج واحدة من أضخم المباني ذات الطراز اليوناني ـ الروماني في إنكلترا . أومو ماركة مسحوق صابون للغسيل .

الأب أوبو شخصية غريبة خلقها الكاتب الفرنسي ألفرد جاري (١٧٧٣ ـ ١٩٠٧) الذي تأثر به كتاب مسرح العبث . أحب أن أذكر هنا أن هنري رسم لوحة زيتية بعنوان (الأب أوبو في ليفربول) ، وهي التي نال عليها جائزة مجلس الفنون في إيرلنده الشمالية (١٩٦٤) . اللوحة تمثل أوبو ماشياً في شارع لايم الواقع في قلب ليفربول . (المترجم) .

من ؟

من أستطيع
أن أقضي حياتي
معها
من أستطيع
أن أستمع معها إلى جورج براسين
يغني :
« Les amoureux des bancs publiques »
من أستطيع
أن أذهب إلى باريس معها
نسكر في الليل مع
زنوج طوال يلبسون ثياباً جميلة
من أستطيع
أن أتشاجر معها
خارج مطاعم السمك والبطاطا
في الشوارع الجانبية
على منبسطات الدرج
من غيرك
يستطيع الغناء مع شوستكوفيتش
من غيرك
يوقع بطاقة عيد الميلاد
« قذيفة مدفع »
من غيرك

يستطيع تشغيل سخان الحمام
من غيرك
يشرب كثيراً من البيرة
من غيرك
يطبخ وجباتي المفضلة كلها
ما عدا الوجبات التي أحضّرها
بنفسي
من غيرك
يرد على نباح الكلاب
في الشوارع المضاءة بالمصابيح وبالقمر
من غيرك
أجدها
تنتظرني بعينين واسعتين سوداوين
في زاوية نادي جاز محلي
تقولين
لم نعد
ننسجم معاً
ولكن
من أستطيع
أن أضحك معها على الشواطىء
متعجبين من الصوت
الذي تحدثه الرخويات
وهي تمتص مياه المد
من

أستطيع
أن أشتري معها
أسطوانة أخرى لمايلز ديفز
من
تحضر القهوة بالطريقة التي تعجبني
و
تحب الطريقة التي كانت تعجبني
من
جاء من الشمس إلى بيتي
يوم
ابتعد العالم
عني
من
لا يغسل الثياب التي أحتاجها دائماً
من
يصرف الأموال
من
يرتدي (الروب دوشامبر) الخاص بي
ويترك دائماً الأكمام مطوية
من يجعلني أحس
خاوياً كالبيت

عندما لا تكون هي هناك

من

إلا

أنت ١٩

مهداة إلى جويس

إعلانات تجارية للقنبلة

(يؤديها صوتان)

١ . أ ـ احصل على لحم بي أي دي النووي المخصص للبشر .

ب ـ لا تعط أسرتك لحماً عادياً ، أعطهم بي اي دي

أ ـ بي . اي . دي ـــــ يطيل الموت الفعلي

ب ـ مدعم بالاسترنتيوم المغذي المأخوذ من العظم النخاعي

٢ . أ ـ في جميع أنحاء العالم ، مزيد من الناس يعدلون إلى

ق ن ب ل ة

ب ـ ق ن ب ل ة ـ جواز السفر الدولي إلى الأنقاض المحروقة .

٣ . ب ـ . . . ثم قلت : « حسناً دعنا نذهب جميعاً في نزهة وذهبنا وكانت الأمور على ما يرام باستثناء بعض الرمل في شطائر الزبدة والزنابير بالطبع ، ووقوع مايكل في النهر ولكن ليس بمستطاعك نيل الكمال أليس كذلك عندها

---

(١٩) معنى أغنية براسين : (عشاق المقاعد العامة) .

ديمتري شوستكوفيتش (١٩٠٦ ـ) مؤلف موسيقي روسي كتب سيمفونيات وأوبرات وموسيقا للبيانو ، إلخ .

حدث انفجار ضخم واشتعل المكان كله وحدث شيء لذراعي مايكل ولا أعلم ما حدث لزوجي ولعله أمر حسن إذ كان لدينا أربع قطع شوكولا كيت ـ كات فأكل كل منا قطعة ثم اضطررنا للعودة على الأقدام لعدم وجود باصات » .

أ ـ استرح قليلاً تناول كيت ـ كات .

٤ . أ ـ يستنشق الناس الغبار الذري المتساقط كل يوم في المدن في جميع أنحاء انكلترا .

ب ـ تخلص من مذاق القنبلة في فمك بتناول أوفل فروتس .

٥ . أ ـ كبس الجنرال هواردج . شيرمال لتوه الزر الذي قتل ٢٠٠ مليون إنسان . إنه عمل كبير ذو مسؤوليات كبرى . فعلى الجنرال أن يقرر بين السلام و إبادة الجنس البشري . . .

ب ـ لكنه لا يستطيع التمييز بين المارجرين والزبدة .

في ســـــاعة منتصف الليل

حين نلتقي
في ساعة منتصف الليل
يا فتاة الريف
سأحضر لك أزهاراً ليلية
ملونة كعينيك

---

(٢٠) بي . اي . دي هي الحروف الأولى من كلمات Prolongs Active Death (يطيل الموت الفعلي) .

أوفل فروتسي شراب يحضر من مسحوق مصنوع من البيض والفواكه

في ضوء القمر
في ساعة
منتصف الليل

أذكر

يدك الباردة
أمسكت بها لحظة بين الغرباء
أمسكت بها لحظة بين الأشجار المثقلة بالمطر
في ساعة منتصف الليل

أذكر

عينيك ملونتين كمنظر في الخريف
تمشين في الدروب الموحلة
ترقبين الأغنام تأكل الورود الصفر
تمشين في ساحات المدينة في مطر الشتاء
تقبّلين في الأروقة المعتمة
تمشين في شوارع الضواحي الخالية
تقولين ليلة سعيدة في الدروب المهجورة

في ساعة منتصف الليل
آندي ويليامز يغني لنا : « سندخر ترحيباً في التلال »
حين ألقاك في المحطة
والبيتلز يغنون : « يمكننا تحقيق الأمر
بالاشتراك مع جيمس آنسور على الهارمونيوم
وريتا هيوارث تغني في نادٍ ليلي : « Amade Mia »

سأرسل لك أساطيل حب
سفناً ضخمة من الأزهار
في ساعة منتصف الليل
يا فتاة الريف

حين نلتقي

في

ضوء القمر
ساعة
منتصف الليل
يا فتاة الريف

سأحضر لك

عينين
صفراوين
بيضاوين
ضوء
قمر
ســـــاطع
أزهار
منتصف

الليل
في ساعة منتصف الليل . . .

زمن الحرب

١ ـ رهينة

في ذكرى ايرليك ماينهوف ٢١

أنتم يا فدائيو المدينة
اقتحمتموني
ورشـــشـــتم بالبنادق
القصائد القديمة
المرابطة على الباب
من أجل مثل هذا الطارىء
مضيتم
بقلبي
في سيارة الهروب
رغم
مطاردة يائســـة
من الشرطة في العربات المصفحة
وطلبتم الفدية
ســـائلين
لا أقل من الانخراط التام .
تلك الليلة
قامت ثورة بيضاء
وتماثيل الحكم القديم

---

(٢١) ماينهوف : من قادة الفدائيين ضد الطبقة الحاكمة في ألمانيا الغربية .

المنابر الصدئة للحملة الانتخابية
ولا يعرف مصير
أولئك الذين أطيح بهم
ساسة شجعان جدد
يحكمون غرفة النوم
لا يزعجهم صوت
فرق الإعدام البعيدة

٣ ـ هدنة

بعد النهاية المريرة للحرب
يعود الجنود المتعبون
ويتشمس الجرحى
بثياب المستشفى الزرق على الشرفات
تراجع
يا حبيبي الصامد
ستوقظنا القذائف المضيئة
وجيوش غامضة
تعيد تجمعها في الليل
بين جسدينا المنفصلين
غداً
هجوم الفجر
الخنادق الملأى بالدم

سقطت في الشوارع
ونيران النصر
أشعلت فوق جميع التلال
والآن
في المعركة الأخيرة
تتابعون القتال وحدكم
من شباك المنزل المشتعل
وأنا
أسير باختياري
منذهل
أصغي إلى عواء
سيارات الشرطة المقتربة
أذوق
رائحة قنابل الغاز النتنة
حين يقتحم رجال الميليشيا المقنعون
الغرفة
أتســـاءل
هل سأفتقدكم .

٢ ـ نظام حكم

الإعلانات الممزقة تخفق
والريح تعوي في

العوالم الملتحمة ثانية
في معركة ودية . .

قصيدة أيلولية

(في ذكرى ماو تسي تونغ)

الريح الشرقية هبت عنيفة في الليل
هادئة في ا لصباح
على أزهار الأقحوان الميتة في حدائق الضواحي

هل ستتفتح الأزهار
المزروعة عند القبر
سنة أخرى ؟

وهل ستهب الريح الشرقية
بهذا العنف مرة ثانية ؟

تعليق

هذه القصائد السبعة المنتخبة من شعر ادريان هنري في الستينات والسبعينات تبرز أهم خصائص هذا الشعر . هناك التزام سياسي يساري واضح . فهنري لم ينسلخ عن الكادحين من طبقته ولم يتبرجز بل بقي على

اتصـــال مستمـر بالمعـذبـين في الأرض ، سواء بسكنـه في ليفـربـول ٨ ، حي الفقراء ، أو باتصاله المباشر بالجمهور العريض الذي يسمع شعره . وهو يكتب لهذا الجمهـور صراحـة . يقـول : « إنني لا أرى أيـة غايـة شخصية أو سياسية تحقق في الكتابة لأقلية منتخبة »[٢٢] .

يتميز شعره أيضاً بوفرة بالإشارات إلى الأحداث والشخصيات المعاصرة وبـالمـواد والاقتبـاسـات المأخوذة من أغاني البوب وغيرها . ويربط الشاعر هذه الإشـارات والمـواد بتجـربتـه الشخصيـة وببيئته الليفربولية المباشرة . وهو ، في مزجـه هذه الإشـارات والاقتباسات ، متأثر بشكل ظاهر بأسلوب في فن الرسم المعاصر يعرف بأسلوب **الملصقات** (Collage)[٢٣] .

ويستخـدم هنـري أيضاً التناقض الظاهري والمبالغة بشكل كثيف . كما نجـد في قصـائـده قوائم من الأشيـاء والصور تذكرنا بأسلوب الشاعر الأمريكي والت ويتـمان . ولكن الشـاعـر يرى في هذا (كما يقـول النـاقـد إدوارد لوسي - سميث) تعبيراً عن صفة التكسر والتبعثر في التجربة الإنسانية المعاصرة[٢٤] .

---

(٢٢) انظر جيمس فينسن (مخ) ، **شعراء معاصرون** ، ص ٦٧٤

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧٤ ، وانظر أيضاً ج . أ . كادن ، **معجم المصطلحات الأدبية** ، طبعة منقحة (هارموتدزورث ، دار نشر بنغوين ، ١٩٨٢) ص ١٢٧

(٢٤) انظر جيمس فينسن (مخ) **شعراء معاصرون** ، ص ٦٧٤

شعر

قصائد مُقاومة
للشاعر البلغاري : فيسلين خانتشيف

• ترجمة : ميخائيل عيد

قصائد لبابلو نيرودا

• ترجمة : رفعت عطفة

قصائد إيطاليّة لشاعر فلسطيني

ترجمة : د. عيسى الناعوري

• ترجمة : ميخائيل عيد

قصائد مقاومة

للشاعر البلغاري : فيسلين خانتشيف

١٩١٩ - ١٩٦٦

ولد في مدينة ستارا زاغورا . درس الحقوق في جامعة صوفيا ثم راح يعب من مناهل الأدبين الفرنسي والروسي ويترجم عنهما . قصائده صدى لأحداث عصره . وقد شارك في الحرب العالمية الثانية .

يعتبر أحد أفراد رعيل من الشعراء المرموقين الذين برزوا في الشعر البلغاري عشية الحرب العالمية الثانية منهم فيسيلين اندرييف وفاليري بتروف وألكسندر غيروف ، وبوغوميل راينوف ، وألكسندر فوتيمسكي ، وبوجيدار بوجيلوف ، ورادوي رالين ، الذين أقالوا عثار الشعر البلغاري وأخرجوه من عزلته ومزاجيته الذهنية . ولم يتورع عدد منهم عن امتشاق السلاح للمشاركة في النضال .

أولى مجموعاته الشعرية كانت بعنوان (إسبانيا) وقد صدرت عام

١٩٣٨ . ثم تتالت أعماله الشعرية (شباب) و (قصائد في أغلفة الطلقات) و (مدفن العظماء المضحك) و (وردة الرياح) و (غنائيات) كما صدرت له عدة مسرحيات قصيرة تحت عنوان : (مسرحيات صغيرة من أجل قلوب كبيرة) .

وقد بلغ أوج نضجه الفني في (وردة الرياح) و (غنائيات) .

* * *

خلود

ستعبر مقطورات الزمن
وستسقط في شعرنا أكوام الثلج
وستنطلق الأحداث ، صغيرها وكبيرها
في ركضها المجنون من حولنا

* * *

ستبقى الأرض أرضاً
وستبقى السماء أيضاً مليئة بالرياح
وستلاطم القرون باضطراب
مياهها على ضفافها

* * *

أما نحن فسوف نكون تراباً صلباً أسود ،
أرضاً دون اسم ، غباراً دون تسمية ،
وستقولون ،

أنتم الذين ستأتون لتحلوا محلنا :
« تلقفهم الموت هم أيضاً ! » .

* * *

أواه ، لقد أخطأتم ! سنعيش نحن !
سيكون العصر جسـدنا !
لقد ناضلنا كثيراً من أجله
وقد قهرنا الموت ذاته .

* * *

ماذا ، لو اهترأت عظامنا ؟
ماذا ، لو غسل المطر دمانا !
ألم نكن أيها العصر ضيوفك
وقد بنيناك نهاراً فنهاراً
وليلة فليلة .

* * *

لهذا سوف نبقى هنا ، لن تنحني فوقنا
صلبان من خشب مهترىء
بل مصانع فيها يغني الفولاذ .
ومدن تغتلي حياة

* * *

سيتحول الدم المراق إلى نفط
ونبضنا إلى هدير محرك جبار

صدقونا ، سوف نعود ثانية
في عيونكم وأيديكم وعقلكم

* * *

قوتي

أنا يا وطني أتنفس بنفسك
وقوي بقوتك
كيف أتجاسر على كتابة قصيدة
لا أسمع فيها صوتك
كيف كنت سأحفر الخامات الثقيلة في المنجم
وأطرق درعاً تحت المطر المتجلد
لو لم تكن قد سكبت في ضربتي الضعيفة
ضربتك وقوتك ؟

* * *

تعطيني سلطانك وحكمتك
أنا الإنسان العادي
فأنمو
أصير ضخماً
وأصلب من كل ذراك
وأنمو
أسمق عالياً
يفعم كاهلاي قوة

وأنمو
لأنك موجود ،
ولأني فيك
وأنت فيَّ
ولكن . . .
إذا أنزلت في القتال يداً
أمام طوق الأعداء
وقلت كلمات سيئة
فلتسقطني يا وطني
بالقوة التي بها رفعتني

* * *

حديث مع الحرب

الليل في الخارج . أما هنا فسكون
الأطفال ينامون بهدوء
ولا تنام
عين جهازي الخضراء

* * *

تطقطق شارات المورس ، يجأر الجاز
على إحدى الموجات ،
وفجأة يعلو صوت أميركي

تلك أنت أيتها الحرب ؟!

* * *

تلك أنت .. تزحفين حولي
في صوتك رائحة الروم
تزحف من قارتك
إلى منزلي المسالم

* * *

تلك أنت .. بشعيرة تسديد ساخنة
ما يزال يلفها الدخان
ونحن نقف تجاهك مستنفرين
وجهاً لوجه

* * *

ماذا ؟ أتريدين ، أتتحرقين
كي نذهب إلى هناك
إلى حيث بناتي
غافيات في السرير
وأن نثب صائحين
في البيت بغتة
وكأننا للصيد ؟
وأن تغرزي في السرير الدافىء
مدينة كاوبوي ؟؟!

* * *

لا تخاطري ! لا تفكري
بالخطو هنا أيتها الحرب !
فعلى سرير بناتي النائمات
يسهر وطني

* * *

إنه يسهر قربي كالجندي
صلباً لا يُغلب
تجاه الأمواج المندفعة
وهي تحمل الموت

* * *

وأنا في الظلام ، كما من خندق
أهمس غاضباً : « إلى الوراء ! » .
تجاه عين جهازي الخضراء . .

* * *

قصائد في أغلفة الطلقات

في أغلفة الطلقات قرب الأجندة المعبأة
في المسير والصدامات العنيفة
نظمتك قصائد ، يا كلماتي الفجة
المولودة في القتال

* * *

رقتي العسكرية وكراهيتي
كرستها لك واحدة فواحدة
وما لم أستطع قوله بالبارودة
أحاول قوله في قصيدي . .

* * *

- ١ -

المعذرة يا ابنتي الصغيرة
المعذرة يا امرأتي !
فوسط الغبش يسير القطار متمهلاً
متجهاً غرباً إلى الحرب

* * *

تلمع على الممر البنادق
ويترجع حديث خشن
أواه ، إن عيون الجنود تدمع
وذلك من الدخان دون ريب !

- ٢ -

تصفر في الظلام صليات الألمان
ثم يسود الهدوء فجاءة
- إلى الأمام سر - وتسير الفصلة

تحت مطر ايلول الجليدي

* * *

الألمان هناك في القرى المشتعلة
ووراءنا وطننا الأم
إنه الآن في الظلام مع الجنود
يسير صامتاً إلى الحرب

* * *

- ٣ -

اعزف يا إيفان ، تلك التي لنا !
اعزف يا إيفان !
لقد خفت أجندة الطلقات
والنار تشتعل

* * *

وعزف إيفان في الظلام
الجنود صامتون
لم يفطنوا لبزوغ الفجر
وإن الدرب تنتظرهم . .

* * *

- ٤ -

في سهل ستراتسين الحجري
في السكون الأزرق الشاهق
يستلقي جندي بخوذة رمادية
يستلقي ديدبان صامت

* * *

ترتعش النجوم فوقه سراعاً
يندبه الندى في الصباح
أما السحب البيض
فتحل شعره المدمى

- ٥ -

شال حريري أحمر
وجدته عند جفنة قرب الطريق
وتذكرت ـ فأنت أيضاً
لديك شال كهذا ، هناك عندنا

* * *

هل ستلومينني
لأنني أخذت شالاً غريباً في الحرب ؟
لقد وضعت الشال بحرص

- ٦ -

سبعة أشخاص على تلعة بنية
ستة أحياء ، السابع قتيل
حفر الستة قبره
وطُمر السابع في الأرض

* * *

ستة رفاق مع السابع ـ الميت
جُنِّزَ دون كاهن ودون مخلّص
بدلاً من الصليب ـ باردوة على القبر
فالميت هو أيضاً معهم في المحرس

- ٧ -

تحت الشجرة الوحيدة
بفروعها الناجية
ارتعش الأسير المخفور بزداً
الأسير الذي دون نطاق

* * *

انتزع الصليب المعقوف

من السترة بيده
أواه لو يستطاع
إخفاء الإثم هكذا !

- ٨ -

(نايدن) ينحني فوق الخندق
بين أصابعه السود ـ ساق عشبة
نظر نحوي بسرور
وهز رأسه حالماً . . .

* * *

« لقد أنهوا الحصاد دون ريب »
قال نايدن ثم عاد إلى الصمت
ومن جديد وجهنا إلى البعيد
أنظارنا الحارة . .

- ٩ -

في ستراتسين تحت الرابية الصخرية
زحف العدو وطوقنا
ظل يدفعنا بالسلاح يومين
وقد أبقانا عطاشاً جياعاً ،
كان يخادعنا ويغوينا

كي نلوح بأيدينا بأي ثمن . .

* * *

ولكننا صمتنا لائذين بالأرض
دون طلقات في الهواء الحار
ولكننا صمتنا ، وقد أسندنا على التراب
أفواهنا الصابرة
ولقد صمت رفاقنا الجرحى
صمتوا وقد أمضهم ألم جراحهم البليغة ،
كي لا يسمع العدو منهم
أنيناً أو كلمة خوف . .

* * *

واستلقينا ـ موتى وأحياء ـ
ملفوحين بالبارود ، صامتين
دون حراك على التلعة العارية
ولم يصمد العدو أمامنا
لم يصمد ، بل فر مذعوراً
من صوتك يا صمتنا !

* * *

ـ ١٠ ـ

لقد آويتنا كأخت
يا غابة في مقدمة الجبهة

حميتنا من الحر ومنحتنا النوم
والأريج وتغريد الطيور

* * *

أما الآن فأنت غير موجودة
لقد حرقك العدو صباح اليوم
وفي الرماد
تستلقي الطيور والأوراق صرعى

* * *

لا شجرة حولنا ولا شجيرة
كل شيء أحمر فاقع
وفوجنا يسير متجهماً
على الأعشاب الســـود

* * *

المعذرة أيتها الأخت الغابة
أيتها الملاذ الجيد !
إننا نسير عبر دخانك المتموج
كي ننتقم لك

- ١١ -

يا شقراء الشعر ، يا شماء الأنف
يا زرقاء العينين يا ابنتي ،

أنت نائمة ، لا تعرفين ما هي الصليات
وكلمة (هورا) البغيضة

* * *

تنامين بعيداً يا حلوتي !
تنامين في سكينة ، مهدهدة !
وأنا أسير إلى القتال عبر الغابة
كي أحمي طمأنينتك . .

* * *

- ١٢ -

في حلقة من حوانيت بيع المشروبات
شربنا نبيذاً جيداً
وعقدنا حول النار
دبكتنا

* * *

أرسلت النار الشرر على الأرض
ورقصت في الليل
وضحت الأرض كلها
تحت أقدامنا

* * *

ترنحت الأرض الخرساء
تحت جزماتنا
وكان العدو يستمع إلينا ويستمع
ومن ثم - خرس

* * *

إيه ، فليستمع ، وليختبىء
متوفزاً حتى الصباح !
فهذه الرقصات المرحة
نذير شؤم له

- ١٣ -

لقد مضت معنا نحو الجبهة
فاجتازت سهولاً وذراري
كي تلحق بابنها في مكان ما
بين الرمال الصفر قرب بتشينا

* * *

كانت صامتة في البداية
ثم قاربتنا ذاهلة
ترقع لنا ، تغطينا بعناية
وتغسل لنا وتزجرنا بصوت أمومي

* * *

كيف استطاعت إخفاء عذابها ؟
كيف لم تبك ولم تصبح حقوداً ؟
لم تتكلم ، ولكننا رأينا
إنها قد شابت أمام أنظارنا على الدرب

* * *

يتذكرها المقاتلون والقادة
في الليالي المظلمة وفي الاشتباكات القاسية
لقد قتل ابنها ، وأتت لتبحث عنه
فوجدت الكثيرين من الأبناء

- ١٤ -

لا ، لا أستطيع النوم ، سأخرج إلى تحت السماء ،
حيث تضيء النجوم وتنفخ الريح المضطربة في بوقها ،
أريد أن أكون هناك معك ، أن أقول لك
ما لم أستطع أوما لم أتجاسر . . .

* * *

لم ألاطفك ، ولم أغازلك يا حبيبتي
فرقنا الواجب ، فلا تبكي ولا تلومي !
فأنا ماض إلى القتال مع الفجر
كي يكون ثمة حب وأحلام في المستقبل

* * *

إذا سقطت صريعاً بين التلاع ، تحت النجوم الباردة ،
فتذكريني بالحسنى ، ولكن لا تجهشي على قبري ،
استقبلي الفرح الذي أحرز بعذابي ،
وأحبي بدلاً مني ، واحلمي !

* * *

لن أغضب ، بل سأكون سعيداً مطمئناً
فلم أذهب إلى الحرب من أجل الألم ولا من أجل الدموع .
لقد طلع الفجر عليَّ . وقد انخرط الرفاق في القتال .
طابت ليلتك يا زوجتي العزيزة !

- ١٥ -

شكراً لك يا أماه
فأنت لم تنسي
حين ولدتني
أن تتركي مكاناً للكراهية
في صدري

* * *

كيف سأحافظ على حبي ، يا أماه
قولي ، بأي قلب ،
إذا أمسكت يدي أخمص البارودة
دون ضغينة في القتال ؟

- ١٦ -

طلع الصباح . خمد إطلاق النار
توقفت الدبابة في ساحة مقفرة
أنزل السائق الشاب الخوذة
وعب الهواء العليل ملء رئتيه

* * *

نسي الموت والقتال
وفوق الفتحة التي ما زالت ساخنة
بدأ كتابة رسالة :
« حبيبتي ، سأعود ، لا تحزني عليَّ . . . » .

* * *

لقد كتب . . ولم يرتعش فوق الأوراق
القلم المضغوط بين الأصابع
صدقيه أيتها البعيدة المجهولة
سيعود ، سيعود حياً !

- ١٧ -

حان الوقت
انهض ، أيها الجندي ، واستعد !
يقف القائد صارماً وهادئاً

نظر الجميع إليه . . وخلال لحظة
تجمعت قوى للخلود

* * *

ها هو صاروخ يلتمع . وانتصب القائد
في الظلام طويلاً مضاء
أشار إلى البعيد وأمر : « ورائي ! » .
واندفعنا هاجمين

* * *

وعبر الأرض البور ، بشفاه مسودة
ملفوحين بالهواء البارودي ،
مضينا والطلقات جاهزة رهن شعيرات التسديد
مضينا والضغينة في قلوبنا

- ١٨ -

كم من الوقت قد مضى على الدرب ؟
كم من الأيام مشينا هكذا ؟
إيه ، أنت تثقليت أيتها البارودة
في اليد الواهنة !

* * *

مسير ، مسير . . . المطر يسوطنا
على الوجوه عرق أسود

وفجاءة ـ يلوح أمامنا كوخ
وتتوقف فصيلة المشاة

* * *

توقفت حدقت في الظلام
دخان ، وخلل الزجاج ـ ضوء
صرّتْ بوابة ، وقفزت
امرأة ضئيلة من نسائنا

* * *

قبلت جباهنا
وأخذت تروح وتجيء
وهي تهمس ، مع أننا لا نعرفها :
« يا أبنائي الأعزاء . . » .

* * *

لا ، لا تثقلنا الطلقات
ولا الدرب الذي لا ينتهي عبر الوحل
فأنت قمين ، من أجل هذه الكلمات
بأن تســـير حتى آخر الكون

ـ ١٩ ـ

في الحقل الذي أتت الحرب إليه
قبل لحظة للحراثة

يستلقي الجندي القتيل
وكأنه يتكلم مع أرضه

* * *

إنه ميت ، ولكن التراب دافىء
ينسكب فيه الدم العسكري
إنه ميت ، ولكنه يحرس ميتاً
الحقل الذي أُنقذ من الأعداء

- ٢٠ -

أيتها الحورات اللواتي تطالعننا
وتنحين أمامنا
فوق من ، فوق من ،
تنوح أغصانكن غصناً غصناً

* * *

تحت الأشجار الحزانى
سبعة أجساد ممددة
فالسرية الأرنؤطية السوداء
كانت هنا البارحة

* * *

لا أحد هنا ، القنن جرداء
الأفاريز في الدخان . . والخواء ،

وعلى الحورات الوحيدات
تحط أسراب تنعب بقبح

* * *

والحورات في السماء
تتأرجحن وتشدن بإصرار
إلى هناك ، هناك
حيث اختبأ العدو صباحاً

- ٢١ -

نسيت الملاطفات أيدينا الخشنة
صار القلب حجراً
ولكن ، لا بأس ،
فمن أجل أن نحب بهدوء
بعد القتال
نسير صارمين إلى الحرب

- ٢٢ -

تنحني السماء فوقنا
مثل خيمة عسكرية
الريح تصفر والأجفان تركض
جفنة جفنة وراء الفصيلة

* * *

إلى القتال تمضي فصيلة المشاة

تخطو بصلابة
فمن منا سوف يعود
إليك أيتها الحياة . . .

* * *

كفى ، لا تترفق يا قلب الجندي
في الصباح الرمادي !
فالقلب الرعديد
يكون الهدف الأول في القتال

* * *

أحدهم يغني . .
تطير الأغنية
حانقة غاضبة ،
تمضي بعيداً
فوق التلعة
تحملها الريح المتوحشة

- ٢٣ -

في كل مكان أرض مقفرة
لا صليات نار ولا صوت
ولكنهم هنا ، من هنا سيمرون
على هذا الدرب . . قرب هذه الجفنة

* * *

تدب سراياهم الخضر

أتلمس الزناد البارد
لست خائفاً ، لست وحيداً
ثمة رفيق وبارودة يترصدان قربي

* * *

يستلقي الرفيق . لا يتكلم
يصيخ السمع إلى الجهات الأربع
ستعمل البارودة دون عائق
ولكنه لن يحل محلي

ـ ٢٤

بالتساوي
تقاسمنا التبغ والفراش
وبالتساوي ـ
البارود والأحلام
إطلاق بارودتك
قرب بارودتي
وأنت تسير قربي

* * *

يثقلني ويثقلك الجناد
بالتساوي ، أيها الرفيق المحبوب
ولي ولك الحق
في أن نتقاسم معاً
النصر بالتساوي . . .

قصائد لبابلو نيرودا

• ترجمة : رفعت عطفة

سلاماً نقول كل يوم . . .

سلاماً ، نقول كل يوم ،
لكل واحد ،
إنها بطاقة الزيارة
للطيبة المزيّفة والحقيقية
إنها ناقوس تعارفنا :
نحن هنا ، ســــلام !
يسمع تماماً ، نحن موجودون ،
سلام ، سلام ، سلام ،
على هذا وذاك ،
على الذي ،
وعلى السكين ، على السمّ
والشرير . سلام ، اعترفوا بي ،
نحن متساوون ولا نتحابّ ،
نتحابّ ونحن غير متكافئين ،

كل واحد ومعه ملعقة ،
نحيبه الخاص ،
مسرور بأنه كائن أو غير كائن :
يجب أن يتمتّع المرء بأيد كثيرة
شفاه كثيرة كي يبتسم ،
سلامُ
لم يبق وقت
ســــلامُ
عدم الإحاطة بشيء
سلامُ
تكريسنا أنفسنا لأنفسنا
هذا إذا بقي من أنفسنا شيء ،
من أنفسنا بالذات ،
ســـلام !

كم من الســـاعات . .

كم من الساعات سقطت اليوم
في البئر ، في الشبكة ، في الزمن :
إنها بطيئة ، لكنها لم تهادن ،
ما تزال تسقط ، متحدة
في البداية مثل الأسماك ،
ثم مثل ضربات الحجارة أو القناني ،
هناك في الأسفل تتفاهم الساعات

مع الأيام ،
مع الشـــهور ،
مع ذكريات ضبابية ،
ليالٍ مهجورة
ثياب ، نساء ، قطارات ومقاطعات ،
يتراكم الزمن
وكل ساعة
تذوب في صمت ،
تتمزّق وتسقط
في حمض كل البقايا ،
في الماء الأسود
لليلة المعكوسة . .

عرفت المكسيكيّ . . .

عرفت المكسيكي تيهواتين
منذ عدة قرون ، في خالابّا
وبما أنني كنت ألقاه في كل مرّة
في كولومبيا ، في إيكيكي ، في أريكيبّا ،
بدأت أشكّ بوجوده ،
بدت لي قبّعته غريبة ،
عندما كان ذلك الرجل ، الفخّاري الصنعة ،
يعيش من صلصال المكسيك ،
ثم أصبح معماريّاً ، قهرماناً

دكّان حدائد في فنزويلا
عامل مِنْجم ومُحضراً في غواتيمالا
فكّرت أنا ، بالعمر نفسه
ثلاثمئة سنة فقط ،
بالصنعة نفسها ، ساهياً
في دكان نواقيسي
بطرق الحجارة أو المعادن دائماً ،
ليسمع أحد نواقيسي
ويعرف صوتي ، صوتي الوحيد
كيف كان هذا الرجل
يبدل تمارينه ،
منذ سنوات ماتت
في أنهار لم توجد .
عندئذ فهمت أنه أنا ،
أننا كنّا باقٍ حياً آخر
بين آخرين هنا وهناك ،
آخرون من أنساب مماثلة مدفونة
بأيديهم التي وسّخها الرمل
يولدون دائماً جاهزين
وفي أي مكان لعمل لا ينتهي

لنر ، ناديت قبيلتي . .

لنر ، ناديت قبيلتي وقلت : لنر
من نحن ، ماذا نفعل ، ماذا نفكّر
أكثرهم ، أكثرنا شحوباً ،
أجابني بعيون أخرى
بظلم آخر ، برايته ،
كان ذلك سرادق العدو
ذلك الرجل ربما كان على حق
بقتل حقيقتي ، هكذا حدث معي
ومع والدي ، وهكذا يحدث
لكنني تعذّبت كما لو أنهم عضّوني

كل يوم ماتيلد

اليوم لك : طويلة أنت
مثل جسد تشيلي ، ورقيقة
مثل زهرة يانسون ،
وفي كل غصن تخبّئين شاهداً
على ربيعاتنا التي لا تمحى ،
أيّ يوم اليوم ؟ أنت اليوم
وغداً البارحة ، لم يحدث ،
لم يفلت يوم واحد من يديك :

تخبّئين الشمس ، الأرض ، البنفسج
في ظلّك الصغير حين تنامين
وهكذا تهدينني الحياة
كل صباح . .

سـأقصّ عليكم . .

سأقصّ عليكم أنني عشت في المدينة
في شارع يحمل اسم نقيب ،
وفي هذا الشارع حشد
دكاكين أحذية ، ومبيع المشروبات الروحية ،
مخازن تطفح بالياقوت
لم يكن ممكناً الذهاب أو المجيء
كان هناك أناس كثيرون
يأكلون ، أو يبصقون أو يتنفسون ،
يشترون أو يبيعون ثياباً
كل شيء كان يبدو لي برّاقاً
كل شيء كان ملتهباً
وكل شيء كان رنّاناً
بما يكفي كي يعمي ويصمّ
منذ زمن ، منذ زمن لم أسمع
شيئاً عن هذا الشارع
بدّلت أسلوبي ، أعيش بين الحجارة

وحركة الماء
ربما مات ذلك الشارع
ميتات طبيعية

أعود من سفر

أعود بسفرة واحدة إلى النقطة نفسها ،
لماذا ؟
لماذا لا أعود إلى حيث عشت
إلى شوارع بلاد ، وقارّات ، جزر
حيث كان لي وكنت ؟
لماذا سيكون هذا المكان الحدود
التي اختارتني ، ماذا في هذا الحظار
غير سوط الهواء العمودي
فوق وجهي ، وبعض الأزهار السوداء
التي يعضّها ويمزّقها الشتاء الطويل ؟
أي ، إنهم يشيرون إليّ : هذا
هو الخمول ، السيد الصدىء
لم يتحرك من هنا
من هذا الحظار الثابت
حتى تصلبت عيناه
ونَمت في نظرته نبتة متسلقة

يعود إلى (أنا) . . .

يعود إلى « أنا» كما إلى بيت عتيق
بمسامير وشقوق ، وهكذا
وقد تعب الواحد نفسه من الواحد نفسه
كما يتعب من بذْلة مليئة بالثقوب ،
فإنه يحاول أن يمشي عارياً لأنها تمطر ،
يريد الرجل أن يبتلّ في ماء نقيّ ،
في ريح أولية ، ولا يحقق
إلا العودة إلى بئر ذاته ،
إلى همّه المصغّر ،
إلى ما إذا وُجِدَ ، عرف كيف يعبرّ ،
أو يدفع ، يتوجّب عليه أو يكتشف
وكأنني « أنا » مهم جداً
وعليّ أن أقبلِ أو لا أقبل
الأرض باسمها النباتي
في مسرحها ذي الجدران السوداء ،

منذ زمن . . .

منذ زمن اكتشفت في سفر نهراً
لم يكد يكوَن ذلك النهر الوليد
طفلاً ، كلباً ، عصفوراً
كان يهمس ويئن
بين حجارة

الجبال الحديدية :
كان يتضرّع الوجود
في وحشة من سماء وثلج ،
هناك بعيداً ، في الأعلى
شعرت بالتعب
مثل جواد عجوز
إلى جانب المخلوق الطبيعي
الذي بدأ يجري
يقفز وينمو
يغنّي بصوت واضح ،
يعرف الأرض ،
الحجارة ، المرور ،
يسير الليل والنهار ،
يتحوّل رعداً ،
حتى يصبح كائناً دوارياً
حتى يصل إلى السكينة
حتى يصبح عريضاً ويهدىء الماء
حتى يصبح بطريركياً صالحاً للإبحار
هذا النهر الصغير
الصغير والمتثاقل مثل سمكة معدنية
هنا ، تخلّفَ حراشفَ عند مرورها
قطرات من فضة معتدى عليها
نهراً
كان يبكي عند ولادته

وراح ينمو
أمام عيني
هناك في جبال وطني
رأيت ، لمست وسمعت
مرّة ومنذ زمن
ما كان يولد :
نبضٌ ، صوتٌ بين الحجارة
وكان الذي يولد

بدرو هو الـ « عندما » . .

بدرو هو الـ « عندما » والـ « كيف » ،
وكلارا ربما الـ « دون شك » ،
روبرتو ، الـ « مع ذلك » :
جميعهم يسيرون بحروف جرّ ،
بظروفٍ ، بأسماء
يتقدمون في المخازن
الهيئات ، الشارع
وكل رجل يزنني بوزنه
بكلمته الرابطة
مثل قبعة قديمة :
إلى أين يذهبون ؟
أتساءل

إلى أين نذهب
بالبضائع
الحذرة
تلفّ أنفسنا بالكلمات
نرتدي الشباك ؟
من خلالنا تسقط الحقيقة
الحل المنتظر مثل المطر :
الشوارع تغدو وتروح
مليئة بالتفاصيل :
أصبح باستطاعتنا أن نعلّق الخُطَب الساقطة
على الطريق ، كما نعلق سجاد الصالة ، الشرفة
على الجدران
دون أن يبقى لأحد شيء
ذهبٌ أو سكرٌ ، كائناتٌ حقيقية
السـعادة ،
كل ذلك لا يحكى ،
لا يلمـس
لا يوجد ، كما يبدو ، شيءٌ واضحٌ
حجارة ، خشب قاس ،
قاعدة أو ارتقاء للمادة .
للمادة السعيدة
لا شيء ، لا يوجد شيء إلا كائنات بلا أهداف
كلمات دون مصير
لا تذهب أبعد من « أنت » و« أنا »

ولا أقرب من المكتب :
نحن مشغولون جداً
نتحادث بالهاتف
وبسرعة
لِنُبَلَّغَ أن الفرح ممنوع

حيوان صغير . .

حيوان صغير
خنزير ، عصفور ، أو كلب
بائس
مزبئر بين الريش أو الشعر
سمعته طوال الليل
محموماً وهو يئن
كانت ليلة شاسعة
وكان البحر في ايزلا نغرا
يهزّ كل رعوده
دكان حديده
براميل ملحة ، بلوره المكسور
على الصخرة الثابتة
كان الصمت مفتوحاً وعدوانياً
بعد كل ارتطام أو شلّال :
كان حلمي يخيط نفسه

ينسج الليل المنقطع
وحينئذ كان الكائن الأشعر
يعاني الاختناق أو الحرارة ،
صلاء ألم صغير ، أنين
ضد ليل المحيط الهائل ،
ضد أرض الصمت السوداء ،
حيوان جريح
صغير
لا يكاد يكون هامساً
تحت فراغ الليل . . .

ليس هناك الكثير مما يُرْوى

ليس هناك الكثير مما يُرْوى
للغد
عندما أهبطَ إلى
صباح الخير
يكون ضرورياً لي
خبز هذه الحكايات
والغناءات
قبل الفجر ، بعد الستار
المفتوح على شمس البرد أيضاً
تكون فعالية يوم مضطرب

عليّ أن أقول : أنا هنا ،
لم يحدث هذا لي وهذا يحدث
في هذه الأثناء تتأرج طحالب
المحيط متهيّئة
للموجة
لكل شيء حقّه
وفوق كل حق حركة
مثل حركة طائر بحري
يقلع من حجر أو ماء ، أو طحلب طاف
أنا يجب أن أنـادي بيديّ :
ليأت أيّ كان
هو ذا هنا ما أملك ، ما أنا مدين به
اسمعوا الحساب ، الحكاية والصوت
هكذا وفي كل صباح من حياتي
أحضر من حلمي حلماً آخر

تمطر . . .

تمطر
فوق الرمل ، فوق السطح
موضوع
المطر :
لاماتُ المطر البطيء ، الطويلة

تسقط فوق صفحات
حبي الأزلي ،
ملح كلّ يوم :
عد ، أيها المطر ، إلى عشك السابق ،
ارجع بإبرك إلى الماضي :
فاليوم أريد الفضاء أبيض
وزمن الورق لغصن
ورد أخضر ، لأوراد مذهّبة
شيئاً من الربيع المطلق
الذي انتظرته اليوم ، والسماء مفتوحة
وانتظره الورق
عندما عاد المطر ليقرع
النافذة ،
ثم ليرقص بهياج مفرط
فوق قلبي وفوق السطح
يطالب بمكانه
طالباً مني كأساً
يملؤها مرة أخرى
بالإبر ، بالوقت الشفاف
بالدموع

في أوج شهر حزيران . . .

في أوج شهر حزيران

حدثت لي امرأة

أو بالأحرى برتقالة

المشهد الشامل مختلط :

قرعوا الباب !

كانت ومضة

سوط نور

سلحفاة فوق بنفسجية

رأيتها

ببطء التلسكوب

وكأنها كانت أو سكنت

ثوب النجم هذا ،

وبخطأ من الفلكي

دخلت بيتي . . .

هذا الناقوس محطّم

هذا الناقوس محطم

ومع ذلك يريد أن يغني :

المعدن الآن أخضر

للناقوس لون الغابة

لون ماء المستنقعات في الغابة ،

لون النهار في الأوراق

البر ونز محطم وأخضر
الناقوس
دفنته النباتات المتسلقة
وهو نائم على وجهه
وانتقل من لون البر ونز الذهبي القاسي
إلى لون الضفدع :
وأيدي الماء
رطوبة الشاطىء
هي التي منحت المعدن خضرة
والناقوس حناناً
هذا الناقوس المحطم
المجرجر في الحرج الوعر
لحديقتي الوحشية ،
الناقوس الأخضر ، الجريح
يغرق ندوبه في العشب :
لا ينادي غيره
ولا يحتشد إلى جانب كأسه الأخضر
إلا فراشة تخفق

من مجموعة (البحر والنواقيس) وهو من الدواوين الأخيرة التي طبعت بعد وفاة الشاعر .

قصائد إيطاليّة لشاعر فلسطيني

ترجمة : د. عيسى الناعوري

أبكي أرضي Piango la mia terra

مجموعة شعرية تضم ثلاثاً وخمسين قصيدة ، كتبها بالإيطالية لاجىء فلسطيني شاعر يقيم في مدينة (بافيا) في الشمال الإيطالي ، غير بعيد عن ميلانو ، وكتب في تقديمها وزير خارجية إيطاليا السيّد جوليو أندريوتّي كلمة قصيرة ، جاء فيها أنّ في هذه القصائد تعبيراً عن إحساس عميق .

هذا اللاجىء الفلسطيني الشاعر هو الطبيب الجراح الدكتور خليل مصطفى . وهو يعرّف بنفسه في القصيدة الأخيرة من مجموعته الشعرية ، وعنوانها (سيرة حياة عادية) ، ويقول فيها إنّه ولد عام ١٩٥١ ؛ وقد ولد لأمّه أحد عشر ابناً : ثلاثة منهم ماتوا أطفالاً ، وأربعة ولدوا قبل أوانهم ، كان هو رابعهم . والأحياء منهم خمس إناث وثلاثة ذكور . وفي سنّ الخامسة وخمسة أشهر من عمره دخل المدرسة ، وكان دائماً بين الأوائل . وعندما أنهى الدراسة الثانوية نال منحاً مختلفة لدراسة العربية ، أو الإنكليزية ، أو العلوم السياسية ، ولكنه رفضها جميعاً لأنه شاء أن يكون طبيباً .

وذهب إلى يوغوسلافيا ، ولكنّه بعد أسبوعين قيل له أنّ عليه أن يدرس اللاتينية ، فقرّر الانتقال إلى إيطاليا حيث يوجد له ابن عمّ . وبدلاً من الدراسة ، أضاع السنوات الأولى في التجوّل في إيطاليا وفي بلدان غربيّة أخرى .

ويقول الدكتور خليل بعدئذ في القصيدة عينها :

« وشاركتُ في مناظرات ، وأدارت رأسي بعض النساء . وسربتُ المزّمن الحيـاة ، وَجُعْتُ أحيـانـاً ، غير أنني عدت إلى الـدراسـة . وفي عام **١٩٧٩** تخرّجت وولدت لي ابنة ، وفي عام **١٩٨٣** تخصّصت . والآن لا أدري ماذا أفعل . . . » .

ويختم القصيدة بقوله :

« فإذا لم أمت قريباً بحادث ما
سأهاجر إلى القمر عام **١٩٩٧**
عندما تكبر ساره
وتصبح فتاة »

هذه سيرة حياة موجزة يكتبها الدكتور خليل مصطفى شعراً في مغتربه الإيطالي :

وفي قصيدة له بعنوان (حياة المخيّم) يقول الشاعر اللاجىء :

« أتذكر (الفوّار) :
إنّه مخيم تملأه خيام
جميلة وبشعة ،
وبيوت طينية
وأتذكّر ما كان مكتوباً
على جباهنا :
التعاسة والظلم
وسوء التغذية »

ومن هنا نعرف أنّه ولد هناك ، في مخيّم الفوار ، وفيه عاش طفولته .

* * *

ولست أطيل على القرّاء في التعريف بالشاعر ، بل سأترك لشعره الذي أترجمه في ما يلي أن يعرّف به . ولكنّني أودّ أن أقول إنّ الشاعر يخاطب بشعره الغربيّين ، وهو يريد أن يَدخُل ، ويُدْخِل معه قضية شعبه ، إلى قلوب هؤلاء الغربيّين . على أمل أن يتعاطفوا مع الشعر الإنساني الرقيق ، الذي يخاطب القلوب ويحدّثها عن مآسي الشعوب .

وأذكر هنا أن شعر المقاومة داخل الأرض المحتلة قد دخل إلى نفوس الغربيّين ، وفعل فيها بكثير من العمق . والناس يتقبلون الشعر الإنساني أكثر مما يتقبلون العنف ، ويتفاعلون مع المشاعر أكثر ممّا يتعاطفون مع المشاكل .

خليل مصطفى خدم القضية الفلسطينية في مجموعته الشعرية (أبكي أرضي) خدمة مخلصة تستحق التقدير ، وأنا لهذا السبب وحده ، ودون أن تكون لي بخليل صلة مباشرة ، أترجم من مجموعته القصائد التالية ، مع تحية مخلصة أبعث بها إليه . ولكنني قبل الترجمة سأتكلّم قليلاً عن المقدمة التي يخاطب بها طفلته قبل أن تولد ، بل أكاد أترجمها ترجمة حرفية ، ألا أقلها .

يقول خليل مناجياً المولود المنتظر ، دون أن يعرف أنه سيكون ذكراً أم أنثى :

« لا أستطيع أن أخفي عنك شعوري بمجيئك إلى هذه الدنيا . منذ شهور وأنا أبحث لك عن اسم ، لأن المخلوقات البشرية لا بدّ لها من أسماء تميّز بينها . ما زال بينك وبين الولادة شهر ، أرجو أن أتوصّل خلاله إلى هذا الاسم ، اسم عربي وآخر غربي ، أو اسم يكون مقبولاً في الشرق والغرب .

لا بد من أن أحبك ، وأقدم لك ما تحتاج بما لا تحتاج إليه أحياناً . بل إنك بولادتك هنا في إيطاليا - على خلاف أبيك - ستكون لك مزايا كثيرة إضافية . ولا أدري إن كنت سأقدم لك الأزهار عند مولدك ، ولكنني لا أريد أن أسيء إليك، وأجعلك تتحمّل عُقد النقص التي في . . . » .

إنك تولد في أوروبا من أب تعس ، لا ذنب له إلا أنه فلسطيني . ومن المؤسف أن هذا سيثقل عليك مدى الحياة .

حالتي النفسية ؟ لا أدري أسعيد أنا أم قلق ، لأن عليّ أن أواجه بصدق ومسؤولية واجبات مهمّة ؛ وهذا ما يثير في ويخيفني في وقت واحد : فأنا شاب ، وأخشى أن أضطر إلى العدول عن بعض المواقف ، وتنظيم حياتي غير المنتظمة .

أتمنى أن لا تتحمل أجواء غير صافية في نشأتك السليمة المرجوّة . وفي ما عدا ذلك ليس في وسعي إلا أن أقول لك ما قاله شاعر عربي لم يكن له أبناء ، وهو :

هذا جناه أبي عليّ
وما جنيت على أحد

أتمنى أن لا تعاني ما عانيت ، وأن أتمكن من جعلك أقل تعاسة مما كنت » .

* * *

هذه الكلمة النثرية قدّمها خليل مصطفى لقصائد مجموعته (أبكي أرضي) ، وفيها منتهى الشعور بالتعاسة ، وفيها كذلك الأمل في أن تكون حياة مولوده المنتظر أفضل مما كانت حياته . ولقد جاء المولود المنتظر ، وكان طفلة

دعاها أبواها (ساره) ، وإلى (ساره) هذه يكتب خليل قصيدته الأولى في المجموعة .

ونأتي الآن إلى بعض قصائد خليل مصطفى ، أقدّمها إلى القرّاء فلذات حارّة من قلب شاعر لاجىء ، يعيش في الغربة بروح الوطن الذي لا يعرفه : فلسطين .

* * *

١ ـ سارة SARAH

(إلى طفلته الأولى) :
أرى فيك
استمراري
إنك بريئة
وصغيرة
وأنت الحب الكبير لأبيك
أحبك
فتجيبيني :
أعرف هذا ، أعرفه
أهاتفك ، فتتكلمين قليلاً
وحين أعود
تتظاهرين بأنك لا تعرفيني
حين تقبّليني

تقبّلني السموات ،
وحين أحتضنك
أحتضن العالم ،
وحين تناديني (بابا)
أحسّ بأنني كبير
لقد ملأت علي كل فراغي
وحين أبتعد عنك
أظلّ في لهفة إلى أن أعود لأراك
إنك طفلة حلوة جدّاً
ومعافاة ، وخجلة ،
ولكنّ هذا لا يهمّ ،
فأنت سلطانة
وقد وهبتِني سبباً لوجودي
وأنسيتِني كلّ همومي
شكراً يا ســـاره
شكراً للقوة التي تمنحينني إياها

* * *

٢ ـ الأم La mamma

أي مخلوق رأيته
كان امرأة
كانت أمي

وهكذا عرفت الحبّ من أول نظرة
وأول مخلوق رآني
كان امرأة :
كانت أمي ،
وقد هامت بحبي
كنت طفلاً ، فلسطينياً
لم يكن لي خيار ، فقبلت
لقد احتفلوا بي
وأول ما تعلمته
هو أن أحب ، وأحب ، وقد أحببت
المخلوق الوحيد الذي أحبهَ دائماً
هو أمي التي أؤمن بها
إنّها امرأة ، وإنّها أمي
مسكينة ! لكم ضحّت !
وعندي أن القداسة هي الأم
وأمي قديسة

* * *

٣ ـ حياة المخيم Vita del campo

أتذكّر (الفوّار) :
مخيّم تملأه خيام
جميلة وبشعة

وبيوت طينية
وأتذكر ما كان مكتوباً
على جباهنا :
التعاسة ، والظلم
وسوء التغذية .
أذكر أن اللحم ،
إذا كان جيّداً ،
كنا نذوقه مرّة واحدة في العام ،
وبدلاً منه كان الخبز ،
خبز الذرة الأسود ،
وخبز الوكالة الأبيض ،
أمّا خبزنا الخاصّ ،
الخبز المصنوع من قمحنا
فلم أذقه أبداً
أذكر أهل المخيم :
خليط من مدن وقرى مختلفة
يرتدون خرقاً مختلفة الأزياء
جاءتهم هديّة من بلدان أخرى ،
ولكن كان دائماً في قلبي
ملابس الشموخ ا [illegible]ـيلة في نفوسهم .
أذكر أهلي
أهل المخيم
الفقراء النشيطين
الذين كانوا يعيشون

على أمل العودة إلى بيوتهم

* * *

٤ ـ أنا بريء Sono innocente

ماذا تريدون مني ؟
أنا بريء
وماذا بوسعي أن أفعل
إن كنتُ قد ولدت فلسطينيّاً ؟
وماذا جنيت لكي أولد فلسطينياً
وأحيا على هذه الأرض ؟
معذرة ! فأرضي لم تعد لي
ولهذا أشعر بالنقص
وماذا بوسعي أن أفعل ؟
منذ سنين وأنا أقيم في (بافيًا)
طالب طب
عليّ أن أدرس فقط
ولكن دائرة الهجرة تريد إبعادي
لا ، لا ، لا ،
فأنا أيضاً مخلوق حيّ !
ليس لي حقّ في شيء
ولكنّني بريء ،

وذنبي الوحيد هو أنني
ولدت في مثل معسكرات الاعتقال

* * *

٥ ـ العدل La Giustizia

كان عمري عشر سنوات فقط
وكنت في المرحلة الابتدائية
وذات يوم في أثناء الاستراحة
وفيما أنا ألعب مع أحد الرفاق
صدرت عنا ضجة ما
فتنبه المعلم
ودعاني إليه
وضربني بالعصا
فصرخت في وجهه :
هذا ليس عدلاً !
فأجاب مبتسماً :
لو كان ثمة عدل
لما وُجدنا هنا
في مثل معسكرات الاعتقال
من تلك اللحظة أدركت
أن العدل لا وجود له
وأي عدل في أن شعبنا لاجئاً

يُبعد عن أرضه :

أرض الربّ ؟

وما دام على هذه الحال

فلا وجود للعدل عندي !

* * *

٦ ـ عطلتي La mia vacanza

إلى أين ستذهب في العطلة ؟

أتذهب هذا العام إلى بيتك ؟

وكيف الطقس هناك ؟

برد ، أليس كذلك ؟

وكم ستبقى هناك ؟

ومع من ستذهب في العطلة ؟

* * *

إنه وقت العطلة الصيفية والصخب !

فإلى أين ستذهب في العطلة ؟

كفى ، لطفاً !

كفى تعذيباً

فلن أذهب في العطلة إلى مكان

في وسع كل الناس أن يذهبوا في العطلة

إلى حيث يشاؤون

حتى إلى بيتي
أما أنا فمحظور عليّ أن أذهب إلى بيتي !
لا أستطيع أن أذهب إلى فلسطين ،
لا في الشتاء ولا في الصيف ،
لا في الخريف ولا في الربيع
لا في عيد الميلاد ولا في الفصح ،
ولا في نهاية رمضان
ولا في عيد الأضحى
الجميع يستطيعون أن يذهبوا إلى فلسطين
إلّا اللاجئين أمثالي . . .
إنّ حلمي الأكبر هو
أن أذهب إلى فلسطين
ولكنني لا أستطيع أيّها الأعزّاء
أن أفكّر حتى في عطلة مدرسية
إلى أين ستذهب في العطلة ؟!

* * *

٧ ـ الشيخ داود Sheik Daoud

عرفت في المخيم رجلاً مسنّاً
كان اسمه الشيخ داود
وكان قبل عام ثمانية وأربعين
يعمل إماماً ،

ويعلّم القرآن ،
ويقيم الصلوات ،
ويصوم رمضان .
ولكنه بعد ذلك وقع في أزمة :
فلم يعد يقرأ القرآن
ولا عاد يصلي أو يصوم
وكان يقول لربه :
سأومن من جديد
إذا ما عاد أهلي إلى أرضهم
وقد مات في عمان

* * *

٨ ـ لا أدري Non So

قال زعماؤهم :
إنّ الفلسطينيين لا وجود لهم
ولست أدري
إن كنتُ موجوداً أم لا !

* * *

٩ ـ أمل Speranza

هل ستشرق الشمس

على الوجوه الحزينة ؟
وهل ستشرق الشمس
على القدس ؟
هل سيهدل الحمام
بأغاني الحرية ؟
ويتحدث الزيتون عن السلام ؟
هل سيجري نهر الأردن سعيداً
نحو البحر الميّت ؟
وتقرع الأجراس
ويؤذن المؤذّنون في الجوامع ؟
وهل سيقلع الإنسان عن السلب والجشع ؟
وتعود أعراس السلام ؟

* * *

١٠ ـ لماذا ؟ Perche

في حزيران عام ١٩٦٧
حلّقت الطائرات فوق عمّان
تحليقاً منخفضاً
وكنت يومئذ في بيت شقيقي
فأُطلقت صفّارات الإنذار ،
فارتعب ابن أخي ،
وكان عمره أربع سنوات

لقد خاف وأخذ يبكي
وسأل قائلاً : لكن لماذا ؟
لن أنسى أبداً ،
وإنّي لأتساءل دائماً :
ولماذا الحروب ؟!

* * *

١١ - حبيباتي Le mie amanti

لي حبيبات كثيرات :
عكّا ، وبئر السبع ، وبيسان ،
وبيت لحم التي تحبّ المسيح ،
وبير زيت ، ونابلس ، وجنين ،
ويافا عروس البحر ،
وأريحا ، أول مدينة في العالم ،
والقدس الملكة ،
وحيفا ، واللدّ ، وعسقلان ،
والناصرة التي تخونني مع يوسف ،
والخليل ، التي تخونني مع إبراهيم ،
ورام الله ، وقلقيلية ، وعجّور ،
وغزّة ، ودورة ، وبيت جالا ،
وطولكرم ، وصفد ، وحلحول ،
والحولة ، وطبريّا ، والرملة ،

وخان يونس وصرفند
ولي حبيبات أخريات ،
أحبّهنّ جميعاً .
وحبيباتي تحت الاحتلال
ولكنّهنّ سيتحرّرن يوماً
إنّ حبيباتي يحببنني
وأنا أحب حبيباتي . .

* * *

١٢ ـ هل سيدعونني أموت ؟ ? Mi Lasceranno morire

أنا لاجئ ،
ولم أكن أفهم معنى ذلك .
أذكر أنّه كان يقال
إنّنا لسنا من هذا المخيم
بل من بلد آخر لم أره قطّ
كانت جدتي تتمنى الرجوع
مسكينة ! لقد ماتت في المخيم ،
ودفنت في الخليل ،
مدينة إبراهيم . .
أمّا جدّي فقد مات قبلها بسنة واحدة
ودفن في النبي موسى
وأبي أيضاً كان يتمنّى الرجوع

إلى مسقط رأسه
ومن يدري إن كان سيُدفن هناك
كلّا ، فلن يتاح له حتّى هذا الأمل المشروع ،
فهو فلسطيني !
وأمّي مصرية من بورسعيد ،
وهناك تستطيع أن تُدْفَن
إذا وافقت الحكومة المصرية ،
أما أنا فلا أدري
إن كانوا سيأذنون لي بأن أموت !!

* * *

١٣ ـ لسنا نملك شيئاً Non abbiamo nulla

يقولون :
ليس لنا برلمان
ولا انتخابات
لنوّاب ولا أعيان
ولا لمجالس بلديّة
ليس لنا دولة ،
ولا ألوية ولا محافظات
ولا ثقافة ولا فن
ويسوقوننا إلى السجون
أو إلى المنافي البعيدة

وماذا في وسعي أن أقول ؟
الأقوياء على حقّ ! . .

* * *

١٤ ـ اقتلوني Uccidetemi

وددت لو أموت
مقتولاً في بيتي
بقذيفة أميركية
مصنوعة في إسرائيل ،
فهذا يمنحني السعادة
بأن أعود إلى وطني
وأستطيع أن أهنأ بالموت
الذي ترقّبته طويلاً
ولكن لا ،
لن يقتلني أحد
لسوء حظّي
لا أحد يريد أن يضيع مقذوفاً
نعم ،
إنّني لا أساوي مقذوفاً
لا يريد أحد أن يساعدني على أن أموت
في وسعي أن أصبر ،
وسأصبر
في انتظار الفرحة في أن أُقْتَل . . .

* * *

١٥ ـ هدايا Omaggi

في أيار
تلقّت أسرتي هديّة :
رحلة مجّانية
غادرت بها أراضيها وأملاكها
وعاد أبي
وعاد لكي يأخذ بعض الأشياء
ولكنّه نال هدية
هي السجن ستة أشهر ،
وحين أفرجوا عنه
كانت الهدية التي لقيها
أن وجد ثلاثة من أولاده
قد ماتوا من المرض وسوء التغذية
وبعد أشهر
جاءته هدية :
خيمة في مخيم
مع العمل
واليوم وقد بلغ السبعين
سينال الهدية بعد شهور
بأن يموت في المخيم :
مخيم الحسين !

* * *

١٦ ـ طوابير الانتظار File di attesa

مرّة واحدة في الشهر
كانوا يوزّعون المؤ ن
طوابير تنتظر
لأجل بضعة كيلوات من الطحين
فيها بضع وحدات حرارية
لا تكفي قطّة
لست أدري كيف استطعنا أن نعيش !

* * *

١٧ ـ مهن مختلفة Vari mestieri

في الأردن ، خلال العطلة المدرسية
عملت بائع فول
وموزّع جرائد ،
وأجيراً في مصنع للشوكولاته
وكاتباً في وزارة الأشغال العامّة
وموزّع بريد
وفي إيطاليا ، خلال أعوام الدراسة ،
عملت خادماً ،
وبائع بنزين ،
ومترجماً

وقاطف عنب ،
وحمّالاً ،
وجرّاف ثلوج ،
وكومبارس ،
وبنّاء ،
ومدرّساً للإنكليزية ،
ومعلماً للعربية ،
وبائع سجاد ،
وطبيباً مجّانيّاً ،
وطبيب نساء مجّانيّاً .
ولكنّني لن أبيع روحي لأحد . .

* * *

١٨ ـ رمال متحركة Sabbie mobili

في طفولتي
بنيت قصوراً على الرمل
والمحزن أنّني لا أزال
أبني ناطحات سحاب
على الرمال المتحركة
فِعْل إنسان خرف
ولكن المأساة هي أنّني
لن أعرف التوقّف . .

* * *

١٩ ـ أنا مضطرب الفكر Ho confusione

تروقني الخضرة كثيراً
والطبيعة تستحوذ عليّ :
الأشجار والروابي ،
والحدائق والكروم ،
والتفاح والبرتقال
ولكنني أحلم بخضرة فلسطين
أشعر أحياناً بأنّني مضطرب الفكر ،
أرى الأخضر أسود ،
والأشجار شياطين ،
والروابي براكين ،
والحدائق سموماً ،
والدوالي أفاعي ،
والتفاح سرطاناً ،
والبرتقال غولاً
كلّ هذا لأنهم
لا يدعونني أرى عالمي الصغير

* * *

٢٠ ـ أنا حمامة Sono colomba

وُلدتُ كالفرخ الصغير

في مخيّم للاجئين ،
وتغذيت على ما تقدمه الأمم المتحدة ،
فأصبحت حمامة
أحلم ، أحلم ،
أحلم بحمامة ،
أحلم بوطن ،
وأحلم ببيت ،
أحلم بالسلام
لثلاثة ملايين من الأرقام .
وأحلم بالسلام
لسائر العالم . .

* * *

٢١ ـ الحب القديم cchio amore

كيف لا أتذكّركِ ؟
وكيف لا أحبّكِ ؟
وكيف لا أحنّ إليك
يا عزيزتي ، يا حبي ، يا جذوري !
أحبّك كثيراً يا حبيبتي . .
فلسطين ! أنت حبي الكبير !!

* * *

قصة

الجُبنـاء

• وليم سارويان • ترجمة: جورج صدقني

التمساح المجاز

• مانفريد كوبر ١٨٨٠ - ١٩٣٣

• ترجمة: إرينا داوود

الغنم الأزرق

للكا لسوفييتي: إيفجين غتسالو

ترجمة: صلاح الدين مقداد

الجُبَناء

• وليم سارويان • ترجمة: جورج صدقني

نبذة عن الكاتب :

ولد وليم سارويان في العام ١٩٠٨ ، وتوفي في شهر أيار / مايو من عام ١٩٨١ . وهو كاتب أمريكي من أصل أرمني ، عاش في كاليفورنيا ، وألف روايات طويلة ، ومجموعات من القصص القصيرة ، ومسرحيات نالت نجاحاً عظيماً . وقد ترجمت أعماله إلى كثير من اللغات العالمية .

الجبناء هم أفضل الناس ، وأكثرهم إثارة للاهتمام ، وأعذبهم ، وأرهفهم ، وأقلهم ميلاً إلى ارتكاب الجريمة . فلا يخطر في بالهم أن يهاجموا مصرفاً . ولا تتملكهم أدنى رغبة في اغتيال أي رئيس للجمهورية . فإذا صادف أن عاملاً من عمال تنظيف الشوارع نعته بأنه مخبول ، لأنه ذرّ ، خطأ ، غباراً في عينيه ، فإن الجبان لا يرى أن شرفه قد لطخ قطعاً ، وأنه مضطر إلى الاشتباك مع منظف الحفر ، والمخاطرة بأن ينال (علقة) خطيرة . بل يقول : « أنا آسف ، في الحقيقة لم أفعل هذا عمداً » ، ويمضي في طريقه .

الجبناء أناس مهذبون . فهم على أقصى درجة من لطف المعاملة . عندما ظهرت دائرة التجنيد في الحي الأرمني من مدينة (فرسنو) ، في العام ١٩١٧ ، تقدم الأبناء المؤهلون لحمل السلاح من مختلف الأسر القاطنة هناك

إلى لجنة إعادة النظر التي كانت تعقد اجتماعاتها في قاعة مدرسة (إمرسون) ، وسرعان ما التقوا مرة أخرى للتدريب في معسكر (كاري) ، في حديقة (يوزمايت) الوطنية . لقد كانت الحكومة بحاجة إليهم ، ومن هم حتى يخاصموا الحكومة ؟

ومع ذلك فإن شاباً في الرابعة والعشرين من عمره ، يدعى كريستوفر أغباداشيان ـ وكان يعيش مع أمه وأخواته الثلاث غير المتزوجات في ١٢٣ / شارع (م .) ، وكان موظفاً منذ ثلاث سنوات في قسم الرجال من مخزن منطقة (كوبر) ـ قد اختفى لا أكثر ولا أقل .

انتبه الناس على حين غرة أنه لم يعد يغادر منزله في الساعة الثامنة والربع بالضبط كل صباح ، ليذهب إلى عمله سيراً على الأقدام ؛ الرجل الأكثر أناقة في الحي بلا منازع ، حتى لؤلؤة دبوس ربطة عنقه ، حتى زرعروة ياقته . . بالطبع كان عدد كبير من شباب الحي قد جُنّدوا ، فلم يكن هناك أي سبب يدعو لطرح الأسئلة حول المكان الذي كان كريستوفر فيه في الواقع . أما أولئك الذين كانوا يحاولون الاستفسار في مخزن (كوبر) ، فكانوا لا يتلقون جواباً سوى أنه سافر ؛ وهذا ، بالطبع ، كان صحيحاً تماماً . .

أما أمّه ، فقد تحرّت منها إحدى أمهات الجيران ـ وهي أم جندوا ولداً أو اثنين من أولادها ـ عدة مرات في السر وفي حذر وحرص وتعاطف عن صحة كريستوفر ، وعن المكان الذي يمكن أن يكون موجوداً فيه ، فتقول مثلاً :

ـ آخ يا عزيزتي إليزابيت ، يحزّ في نفسي أنني لم أعد أرى ابنك كريستوفر الوسيم يذهب إلى عمله مثل كل صباح . فهل أخذت الحكومة الصبي المسكين إلى الحرب كما حصل لابني سيمون وابني فاسك ؟

فتجيب أم كريستوفر : نعم ، لقد أخذوا كريستوفر أيضاً . حماه الله ،

وحمى ولديك أيضاً .

ولم يكن هناك ، بالطبع ، أي سبب للشك في هذا الجواب ، ولا للمضي قدماً في البحث والتنقيب . ومع ذلك ، عندما توقفت ذات يوم سيارات (فورد) وسيارات (شفروليه) ذات مظهر رسمي جداً أمام البيت الصغير الأبيض النظيف في ١٢٣ شارع (م .) ، ونزل منها أمريكيون ذوو ملامح تتسم بالقدر نفسه من المهابة ، فطرقوا الباب ثم دخلوا ، فإن جميع الناس في الحي أخذوا يتساءلون عما يجري . هل يمكن أن يكون كريستوفر قد قضى نحبه ، وأن يكون هؤلاء الأمريكيون ذوو الملامح العظيمة المهابة ـ إنهم موظفون لدى الحكومة بلا ريب ـ قد جاؤوا إلى هنا ليقوموا بزيارة أم كريستوفر وأخواته ، لكي يبلغوهن النبأ بألطف أسلوب ممكن ، ولكي يقوموا بواجب التعزية بكريستوفر ، بوصفه أول فتى من الحي الأرمني يبذل حياته في سبيل الحكومة ؟ ولكن عندما توقفت ، بعد شهر ، ثلاث سيارات أمام البيت ، ونزل منها أناس على أعظم قدر من المهابة ، ومن بينهم رجل يتقلد علامة (الشريف) ويحمل مسدساً في حزامه ، فإن سكان الحي قالوا في أنفسهم : إنه لا بد أن أمراً يدعو إلى الريبة قد حدث .

وذات يوم قالت الأم إليزابيت ، وهي تلفّ تيناً عند (غاغنهايم) ، لأعز صديقاتها ، أرشالوس غانجاكيان : « ضعي نفسك لحظة في مكاني ، وافهمي عصبيتي . لقد بلغ مني القلق بشأن ابني مبلغاً جعلني لا أعرف النوم أبداً . لقد اعتقدنا أنه أخذ إلى الجيش ، شأنه شأن الآخرين جميعاً ، ولكنهم يقولون لنا أن لا ، وإنه ليس في الجيش ، وإذن أين يمكن أن يكون يا أرشالوس ؟ لقد كنت أفضل ألف مرة أن يكون حقاً في الجيش ، وأن يكتب لي مرة في الشهر . ها قد مضت ستة أشهر ولا خبر منه مهما كان ضئيلاً . لقد وصل بي الأمر أنني أصبحت أصلي لكيلا يكون قد حدث له مكروه » .

فأجابتها صديقتها : « آه ، إنه فتى طيب . الله سيرعاه . أرجو أيضاً ألا يكون قد ذهب ليحشر نفسه في مكان من أماكن الضلال . في مدينة كبيرة كسان فرنسيسكو مثلاً ، أو شيكاغو ، أو حتى نيويورك . سأشعل شمعة لأجله في الكنيسة يوم الأحد ، وسأتلو صلاة ، لأنه فتى طيب » . ثم بعد أن اشتغلت في صمت مدة نصف ساعة كاملة ، كي تجني من ذلك كله حوالي دولارين أجرة عشر ساعات عمل في اليوم ، استطردت الصديقة قائلة : « أو هناك ما يمكن أن يكون أسوأ من حياة ماجنٍ هنا أو هناك ، أتضرع إلى الله ألا يكون قد ذهب فأغرق نفسه في هذا النهر أو ذاك ، كما فعل غيره من الفتيان لأنهم لا يؤمنون بالحرب ، ولأنهم يرفضون أن يصبحوا جنوداً . اسمعي ، مساء أول أمس فقط ، قرأ ابني الأصغر يدفارد قصة من هذا القبيل في (الايفننغ هيرالد) » .

وعلى هذا النحو سرت شائعة جديدة في الحي بشأن كريستوفر تقول : « لقد سافر ، لقد اختفى ، لم يكتب لأمه مرة واحدة خلال ستة أشهر ، ربما كان في سان فرنسيسكو يحيا حياة الخطيئة ، أو أنه أغرق نفسه في مكان ما . اذكروه في صلواتكم » .

ومضت شهور طويلة أيضاً ، وبقي كل شيء على حاله .

من باريس ، كان هيغوس بابويان يرسل بطاقات بريدية تحمل صورة برج إيفل وقوس النصر والتويلري ، إلى الأعضاء التسعة في مدرسة الأحد ، التي كان معلماً فيها ، في الكنيسة المشيخية الأرمنية الأولى ، راوياً دعابات من هذا النوع : « إن شوارع باريس ملأى بالرجال الذين ولدوا مشوهين ، بسبب الزهري الذي أصاب آباءهم » ، وأمور أخرى من هذا القبيل .

قتل جيساغ جاماناكيان في (فردان) ، وفاهرام فاهارميان في (شاتوتيري) ، والتوأمان كاسابيان ، كريبولا وكاركين ، في غابة (بيلّو) .

كلهم كان عمرهم أقل من خمسة وعشرين عاماً ، وكلهم جيء بهم من أرمينيا إلى (فرسنو) وهم أطفال صغار في أحضان أمهاتهم ، أووهم صبية صغار جداً . ولكن هناك الكثير غيرهم أيضاً ، ممن سقطوا في ميدان الشرف في فرنسا أو الفلاندر أو النورماندي أو في مكان آخر . وهناك عدد من سيئي الحظ منهم ، ماتوا بنزلة وافدة قوية أصابتهم في حصن (كاري) ، فكأن لا علاقة لهم بالحرب البتة . وهناك اثنان أو ثلاثة لاذوا بالفرار ووصلوا إلى سان فرنسيسكو ، ولكنهم قفلوا عائدين بعد أسبوع أو أسبوعين ، فمروا بعيادة طبية ولم يعاقبوا إلا عقوبة طفيفة . وحوالي ستة من فتيان الحي أصيبوا بالغاز ، ولكنهم ظلوا على قيد الحياة . وهوسيب لوسينيان ـ الذي أصابته شظية قنبلة ، فظنوه ميتاً وتركوه في ذروة القصف في المنطقة التي تدعى (المنطقة المحايدة) ـ قرت نفسه واطمأنت وعدّ نفسه ميتاً ، عندما وصل أحدهم إليه زاحفاً ، وجرّه إلى الملجأ . وتبين أن هذا كان الشخص الوحيد في السرية كلها الذي كان هوسيب لا يحبه ، بل ويعدّه عدوّاً ، وهو فتى آشوري من (تورلوك) يدعى جو أشوري . أصبحا صديقين مدى الحياة ، يتنازعان دوماً وفي كل حين ، فيصرخ جو قائلاً : « ما كان أغباني حقاً عندما خاطرت بجلدي من أجلك » ، ويجيبه هوسيب على هذا فيقول : « كل ما أنتظره هو الفرصة لأردّ لك ذلك . وبعدها الوداع ! » .

* * *

في أوائل شهر تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨ ، وفي محلات (غاغنهايم) ، سألت إليزابيت خير صديقاتها أرشالوس غانجاكيان ، فقالت : « أصحيح أن الحرب ستنتهي في القريب العاجل ؟ » .

أجابت أرشالوس : نعم . يدفارد يجد أموراً جديدة حول هذا الموضوع في الجريدة كل يوم . جميع أبنائنا سيعودون في القريب العاجل . في القريب

العاجل سأرى ولدي مهران من جديد ، وأنت ولدك كريستوفر ، أنا واثقة بذلك ، حيثما كان موجوداً في الوقت الحاضر . أما زلت لم تتلقي أخباراً منه ؟

قالت إليزابيت : لا ، لا شيء ، ها قد انقضت سنتان ، ولا كلمة .

ولكن منذ أكثر من سنة ، وأهل الحي كلهم كانوا يسمعون كلاماً عن كريستوفر ، وأموراً يضعونها موضع الشك ، وفي الوقت نفسه يصدقونها قليلاً . وقد جاء ذلك في أعقاب أمرٍ رواه آش باشمانيان ، الذي كان يذهب في كل مساء ، بعد أن يكون قد فرغ من بيع جرائده ، إلى سينما (الحرية) ، حيث كانت أجرة دخوله تقتصر على نسخة من الجريدة يدسها للبواب ، فلا يخرج إلا بعد انتهاء الحفلة الأخيرة ، الأمر الذي يعد ، بالنسبة إلى (فرسنو) وقتاً متأخراً نسبياً : أي بعد منتصف الليل بقليل . فعندما عاد آش إلى بيته وجلس أمام وجبة عشائه ، أخبر أباه قائلاً : « قبل قليل ، رأيت كريستوفر » .

بعد ذلك ببضع دقائق أجاب والده : « لم أكن مصغياً . إنني قلق لعلمي أنك تكون في السينما كل مساء . ماذا كنت تقول ؟

قال آش : ـ كريستوفر . لقد رأيته .

ـ كريستوفر أغباداشيان ؟

ـ أجل . ذلك الذي كان يشتغل في قسم الرجال من مخزن (كوبر) .

قال الأب : ـ كنت تحلم . من كثرة ما رأيت هذه الأفلام كلها ، لذلك .

ـ كلا ، أقول لك إني رأيته .

ـ لقد سافر منذ حوالي سنتين . فكيف أمكن لك أن تراه ؟

قال آش : ـ إذن لا بد أنه عاد .

سأل الأب : ـ من أين ؟ هل كان في اللباس العسكري ؟

ـ كلا . كان لابساً عين الثياب التي يلبسها عادة .
ـ إلى أين ذهب ؟
ـ إلى منزله .
ـ منزله أين ؟
ـ في شارع (م .) ، لقد رأيته يدخل إلى منزله ، وأنا قفلت راجعاً إلى هنا .

قال الأب : ـ أرجوك ، احتفظ بهذا لنفسك .

ـ لماذا ؟

ـ احتفظ بهذا لنفسك ، هذا كل شيء . لم يعد ما في وجهك عينان ، بل ثقبان بعد هذه الأفلام كلها ، وكريستوفر تبحث الحكومة عنه . فلننسَ هذا كله . أنت لم ترَ شيئاً . ومكافأة لك سأعطيك دولاراً .

هتف آش قائلاً : أنا لا أريد دولاراتك . إنني أبيع الصحف كل يوم لكي أستطيع أن أجلب قليلاً من النقود للبيت . لن أقول هذا لأحد ، ولكن الأمر المؤكد هو أنني رأيته .

لا بد أن شخصاً آخر قد رآه أيضاً ، لأن الشائعة انتشرت بسرعة في الحي كله بأن كريستوفر أغباداشيان قد عاد . فإما أنه لاذ بالفرار وعاد ، أو أنه ظل مختبئاً في المنزل رقم ١٢٣ شارع (م .) هذه المدة كلها ، إلى أن أصبح الأمر فوق الطاقة ، فأخذ يخرج للنزهة في وقت متأخر من المساء .

وراجت نكتة حوله ، فأحدهم يسأل : ـ أين كان ؟
فيأتيه الجواب : ـ تحت السرير .

ولا ريب في أن الشائعة التي راجت في الحي قد بلغت مسمعي خير صديقات والدة كريستوفر ، أرشالوس غانجاكيان ، إن لم نقل إنها بلغت

مسمعي إليزابيت .

وبعد بضعة أيام من حديثهما عن نهاية الحرب المرجحة ، قالت اليزابيت لأرشالوس غانجاكيان : « أرشالوس ، يا صديقتي ، ينبغي في طريق عودتنا إلى بيتنا أن أحكي لك أمراً ، لأنني سأموت فيها أعتقد إن لم أفعل » . وفي طريق العودة ، عندما تأكدت من عدم وجود أحد يمكن أن يسمعهما ، قالت : « كريستوفر لم يذهب إلى أي مكان . لقد كان في البيت طول هذا الوقت . إنها غلطتي . لقد قلت له إنه إذا ذهب سأموت . لقد مات والده عندما كان لا يزال صبياً صغيراً لا يقدر على شيء . فما كان بوسعي أن أتحمل فقدان الرجل الوحيد الباقي في الأسرة . ولكن ، ما العمل في الوقت الحاضر ؟ ماذا يحدث له عندما تنتهي الحرب ، ويعود جميع الناس ؟ كل هذا بسبب غلطتي ، أقسم على ذلك ؛ فلا ذنب له البتة . ساعديني . أعرف أن بوسعي أن أثق بك ، وأنك لن تتحدثي بذلك إلى أحد . ساعديني ، أتوسل إليك ، وسأرد لك ذلك مائة ضعف . ماذا أعمل ؟ ماذا نعمل ؟ » .

* * *

في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ وضعت الحرب أوزارها . وهذا كل شيء ، فيما عدا الفتى الذي غرق في (كنغسبرغ) ، وأولاد الحارة الذين ماتوا بالنزلة الوافدة في معسكر (كاري) ، وكريستوفر الذي لحقه العار ، كريستوفر (تحت السرير) ، وهو اللقب الذي أطلقه عليه الجميع . ولكن لم يكن أحد ينظر إليه من علٍ ، وما من أحد أيضاً كان يحتقر أمه . كريستوفر وأمه وحدهما كانا يعرفان ما فعلاه ولماذا فعلاه . وما من أحد غيرهما كان بوسعه حتى أن يخمنه تخميناً . مهما كان من أمر ، وبأية طريقة حدث هذا ، فإنه أمر يسوّى بينهما وبين الله ، وليس مع الحكومة ، التي من المؤكد أنه لديها أشياء أكثر بكثير مما لديه من حساب يقدمه إلى الله .

على مدى أسابيع وأشهر ، وبينما كان أولاد الحارة يعودون إلى بيوتهم ويلبسون من جديد ثيابهم النظيفة ، ساد اختلاط فرح في الحي الأرمني كله ، فقط مع انفجار من انفجارات الحزن هنا أو هناك . وهذا على نحو شبه دائم من جانب الرجال الأصلب والأقوى ، من أمثال شولافاري باشمانيان ، الذي كان ـ عندما يسألونه عن سبب بكائه طالما أنه ليس له أي ولد في هذه الحرب ـ يجيب قائلاً : « بسبب كريستوفر . الذي فضحوه وشهروا به بسبب شجاعته . الواقع أنه جبان . ولكن الرجل يحتاج لكي يكون جباناً إلى قدر من الشجاعة أكبر بكثير من القدر الذي يحتاجه لكي يكون شجاعاً . أي شيء أيسر على المرء من أن يكون جندياً للحكومة مع جميع رفاقه في الوقت نفسه ؟ ولكن ما أصعب على الإنسان أن يكون ذاته ، وحيداً تحت السرير في بيت أمه . إنني أبكي على شجاعة كريستوفر . لقد انتهت الحرب . والذي ربح . أياً كان ، ربح بغير كريستوفر . سامح الله المنتصر وكذلك المهزوم : إن لكلا الجانبين موتاه الذين ينبغي البكاء عليهم . رعا الله كريستوفر (تحت ـ السرير) حيثما حل وحيثما ارتحل » .

في هذه الأثناء ، وقبل توقيع الهدنة ببضعة أسابيع ، ذهب إلى (سكرامنتو) ، حيث حصل على عمل تحت اسم تشارلز أبوت في قسم الرجال من محلات (روس اخوان) ، الذين سرعان ما قدموا له عملاً أعلى أجراً في مخزنهم بسان فرنسيسكو ، حيث بقي ثلاثة أعوام ، فتح بعدها مخزنه الخاص به في شارع (بوست) .

وهناك وبعد ست سنوات استطاعت الحكومة أن تضع يدها عليه . كان قد تزوج فتاة من بوسطن ، نصف اسكتلندية ونصف ايرلندية ، متخرجة من جامعة (سميث) ، رزق منها بثلاثة صبيان وبنت . وتزوجت اثنتان من أخواته ، وماتت الثالثة ، وكانت أمه تعيش وحيدة في المنزل رقم ١٢٣ شارع

(م .) ، حيث كانت أحياناً تتلقى زيارة ابنتيها وزوجيهما وأولادهم .

قال ممثل الحكومة ، الذي كان في حوالي السبعين من العمر ، ويدعى باتاغليا : « إن ما نريده بالدرجة الأولى في الواقع هو أن نضرب صفحاً عن كل هذه الأمور . فهل أنت حقاً كريستوفر أغباداشيان ؟

قال كريستوفر : ـ نعم . رغم أنني ، كما تعلم ، استخدمت اسماً مستعاراً ـ هو تشارلز أبوت ـ منذ أكثر من عشر سنوات . لقد كان في نيتي دائماً أن أجري هذا التغيير على كل حال ، لأن اسمي عسير لفظه جداً بالنسبة إلى أمريكي ، ولأن اسم جدي لجهة أمي هو آهبيت ، الذي يكاد يكون له الجرس نفسه الذي لاسم أبوت .

قال باتاغليا : ـ حسناً ، هذا كله معقول . أهي حالة من قبيل فقدان الذاكرة ؟

قال كريستوفر : ـ كلا ، لم يكن الأمر فقداناً للذاكرة . لقد بقيت مختبئاً في بيتي لأنني لم أكن أريد الذهاب إلى الحرب . لقد كنت أعرف ما أعمله تمام المعرفة . كانت والدتي وأخواتي يتوسلن إلي كل يوم كي أسلم نفسي وأذهب إلى الجيش ، ولكنني رفضت دائماً . إنني لم أنسَ شيئاً من هذا كله . فلم يكن هناك فقدان ذاكرة . وقد أظهرت لي الحياة قدراً عظيماً من الطيبة ، فأنا لا أشعر بالارتباك ولا بالخجل من ذلك . في المدينة التي ولدت فيها توجد حفنة من الناس اللائقين تماماً ما زالوا يتذكرونني على أنني كريستوفر (تحت ـ السرير) . بل إنني بدأت أحدث أولادي في هذا الموضوع . وحتى الآن يبدو أنهم يجدون هذا عجيباً جداً .

قال باتاغليا : ـ فهمت . في الحقل الذي عنوانه (سبب التخلف) ، كتبت (فقدان الذاكرة) ، حتى إذا ما خطر لأحدهم أن يلقي نظرة على هذه

البيانات ، وهذا ما أشك فيه كثيراً . في رأيك ، ماذا كان ينبغي أن أكتب ؟

قال كريستوفر : ـ جبان .

قال باتاغليا : ـ سيكون هذا خطأ على الأقل كما أن فقدان الذاكرة خطأ سواء بسواء .

ودوّن بعض الكلمات في الحقل المخصص وأعلن قائلاً : ـ هوذا : (أب) ، أنا واثق بأن هذا يسوي المسألة . هذه حكاية منتهية .

وخرج من الدكان وكأنه دخل بنية شراء شيء من الأشياء ، ولم يجد فيه شيئاً على ذوقه .

إن الجبناء أناس طيبون ؛ إنهم يثيرون الاهتمام ، إنهم لطفاء ، وهم لا يخطر ببالهم أبداً أن يطلقوا النار على موكب سائر من أعلى برج من الأبراج . إنهم يريدون أن يعيشوا ويعرفوا أولادهم . أن الجبناء شجعان جداً .

التمساح المجاز

• مانفريد كوبر ١٨٨٠ - ١٩٣٣

• ترجمة : إرينا داوود

« في حياة الحيوان ملهاة ومأساة كما في حياة الإنسان » .

هذا ما قاله (مانفريد كوبر) الذي ألف في العصر الحديث أجمل القصص عن الحيوانات . ويتابع (كوبر) : « في أغلب الأحيان يعتقد الناس أن هوة تفصل بينهم وبين الحيوان ، وما هي إلا درجة في سلم الحياة . إن الكائنات الحية كلها أولاد وحدة متكاملة » .

ومن خلال هذا الموقف يصور (كوبر) الحيوانات - أبطال قصصه - بأحاسيس الإنسان وتصرفاته . والقصة التالية التي تدور حول التمساح ذي الشهية المفتوحة تشكل حالة من حالات التماثل بين تصرف الحيوان ومشاعره وبين تصرف الإنسان .

من كتاب (أجمل قصص الحيوانات) جمعها (هربرت فند) (ص ٧٠ - ٧٦) دار النشر : جمعية الكتاب الألماني ، برلين - دارستات - فينًا .

التمساح المجاز

كان هناك صحراء وفيها نهر وفي هذا النهر عاش تمساح . ويؤسفني أن

أقول ـ ولكنه من الحق أن يقال ـ أن جنس التماسيح غير محبوب لدى الجميع . وليس السبب في أنها تهمل مظهرها إهمالاً تاماً ولا في وجود التجاعيد السمجة حول أفواهها ـ فما هي إلا شكليات ـ وإنما السبب الحقيقي لعدم محبة التماسيح هو شهيتها المفتوحة أبداً . وموقف العالم من هذه الظاهرة موقف واحد لا خلاف فيه : فكلما ازدادت الشهية ضعف الحب لصاحبها . إن الحب والصداقة لا يزدهران إلا في جوّخال من الطمع . وقد يشترط بعض المغالين ، ولو من قبيل الأخذ بأطراف الأحاديث ، شرطاً يدل على شيء من ضيق السماحة وهو طلب الأمن من خطر الالتهام بل حتى العضعضة . صحيح أن مثل هذا الموقف لا يراعي إلا مصلحة طرف واحد ولكنه مع ذلك موقف معقول، فليس هناك من أحد يريد لمجرد تبادل بعض الكلمات اللطيفة أن يضحي بيديه أو برجليه التي يحتاج إليها من جهة والتي هو صاحبها على كل حال من جهة ثانية . إذاً ، ليس لأحد أن يحبنا إذا ما استهدفنا ابتلاعه . ولما كان التمساح يشتهي كل شيء ويريد أن يبتلعه فلا غرو أنه مخلوق غير محبوب لدى الجميع . إنه يبتلع كلاً من المبشرين والضفادع والزنوج والقردة وحتى أفراد أسرته لا يتردد في ابتلاعهم . وكل ذلك بسبب شهيته المفتوحة أبداً . فكل ما يدخل جوفه مفيد لصحته ـ والحمد لله ـ وكله حتى أقرباؤه سهل الهضم على معدته .

كان هذا التمساح إذاً مستلقياً في النهر الذي حفر مجراه في الصحراء وكان يشتهي لقمة وكان شرس النفس . إنه لم يكن شرساً لرغبته في الأكل ولكن بسبب عدم وجود شيء يحقق رغبته . وفي مثل هذه الحالة يمكن أن يتحول كل واحد إلى مخلوق شرس بل حتى لو كان سيدة ذات مشاعر رقيقة .

« لو رجل أبيض بين فكّيّ ، فما أطيبه » . قال التمساح . وأغمض عينيه في وجه شمس الصباح . « إن أطيبهم للفطور هم البيض ، أما السود فيستحسن تناولهم لوجبة الغداء لأن لهم أكبر نسبة من الزيت ولذا يكونون أكثر

إشباعاً . والفرق بينهم كالفرق بين الدجاج والبط . أما تجار الخمر فظريف طعمهم كطعم لحم الصيد وذلك بفضل تعاطيهم الخمر وأغلب الأحيان يتمتعون بحالة صحية جيدة » .

وابتسم التمساح ابتساماً حزيناً مما زاده ـ مع أسفي الشديد ـ قبحاً ليس بقليل ولا سيما في القسمات من حول فمه . « حتى طعام وطني مفقود » استأنف التمساح وبلع لعابه من لوعة جوعه . « إنني رضيت بطعام شعبي ، ابن الأخ مثلاً وابنته . ولكني قد أكلت نصف الجماعة ففضّل النصف الآخر أن يسبح مع التيار مما يؤكد على عدم الشعور بروابط القرابة . ماذا إذاً تفيد الشهية والحالة كذلك ؟ » .

ووسّد التمساح معدته الجائعة في الوحل الأكثر عمقاً ثم أغمض عينيه مستسلماً وكان يتثاءب من غير أن يغطي فمه بكفه الأمامية لأن فمه أوسع بكثير من أن يغطي بالإضافة إلى أن التمساح لا يهتم اهتماماً بالغاً بآداب اللياقة .

« سأنام قليلاً » فكر التمساح واستقر في غفوة .

جلس على شجرة النخيل قرد صغير كان يدندن بصوت خافت وهو منهمك في البحث عن النباتات وخصائصها . تميز هذا القرد الصغير بالمرح ، وكان يسرّه في كل لحظة التفكير في كونه قرداً ثم في أعجوبة وجوده في هذا العالم . ومن حين إلى آخر كان يقوم بالتدريب على بعض الحركات الرياضية على (طريقته الخاصة) وتبعاً للمنهج الذي يقول : « كيف أحقق أجمل ذنب لي وأطول يدين وأقصر رجلين ؟ » ، وبعد ذلك استقر على غصن وبدأ يفتش عن العناصر الأجنبية والمزعجة في فروه وطردها دون أن يفرق بين ذكر وأنثى أو صغار في نعومة طفولتهم . كان عملاً شاقاً ولكنه كان مثمراً ومفيداً .

« إني أقدر على حك جسمي في ثلاثة مواضع في آن واحد » قال القرد

الصغير وابتسم بمنتهى الرضا عن نفسه . « ذنبي وإحدى رجليّ يحولان دون وقوعي وأما ما تبقى فيحك . ما أعظم حكمة الطبيعة ! » . حقاً ، كان مزاج القرد الصغير مزاجاً مرحاً ومتواضعاً . وبينما كان يعيد النظر في ثوبه أقلقه صوت التمساح المبحوح بعض الشيء . وكان التمساح قد ألقى بنظره إلى الأعلى حيث اكتشف القرد الصغير . « صه . يا سيدي » ، ناداه : « انزل ، فإني أريد أن ألتهمك » . قال : « ألتهمك » إذ أن أسلوب التمساح التعبيري أسلوب غير مؤدب .

ذعر القرد الصغير ذعراً شديداً وقال بصوت باك : « كلا ! » وقد وقف شعره من الخوف حتى تفرقت العناصر الأجنبية في فروه إلى كل الجهات وعلى غير هدى .

« يعني أنك لا تريد النزول » نفخ التمساح بشماتة وأخرج الهواء بغيظ من منخريه : « حسن ، سأنتظر حتى يدفع بك الجوع من الشجرة حين تخلو من كل شيء نافع . ليس في هذه الحياة أهم من الشهية . وهذا ما أعرفه » .

لم ينبس القرد الصغير بكلمة أخرى بل تناول سعفاً من النخيل خبّأ فيه وجهه وانتحب كسير النفس . أين الآن حكمة الطبيعة ؟ وما فائدة اليدين الطويلتين والرجلين القصيرتين التي اكتسبها بالتدريب على طريقته الخاصة إذا كانت نهايتها أن تبلع ؟ « ما أشدّ غطرسته » زمجر التمساح ثم تنحنح حاقداً : « يتدلل وكأنه من ألذ المأكولات مع أن لحم القردة من اللحوم العادية جداً » .

والحقيقة أن القرد الصغير لم يكن متغطرساً على الإطلاق بل كان خائفاً أشد الخوف من أن يُلتهم ، وبدأ يفكر في أبيه وأمه وابنة الجار الكبرى التي قبلته القبلة الأولى مكافأة للطفه حينما كان يمشط فروها الناعم . ولا تختلف تلك المشاعر إن كان صاحبها إنساناً كبيراً أو قلب قرد صغير مرتجف ـ وما يصح في

ساحة المشاعر كثيراً ما يصح في أمور أخرى . وعلى كل هناك قوة خفية تؤم المخلوقات المسكينة الخائفة برحمتها وهي التي قد أشفقت أيضاً على القرد الصغير . وما كاد يتناول سعفاً ثانياً ليسكب فيه دموعه حتى شعر بذنب قرد يطوقه وصوت يهمس له بفكرة ـ لعله أمه أو أبوه أو بكر الجيران . . ؟ وكانت الفكرة رائعة إلى حد جعل القرد الصغير يتوقف عن البكاء على الفور واستوى شعره وتهلل وجهه فبدا عليه السرور الذي له جمال خاص حين يغمر وجهاً قبيحاً .

« صه ، سيدي » قلد القرد التمساح ورمى رأسه بنوى التمر . « هل تملك إجازة ؟ » وكم الذين يشبهون هذا القرد . ما يكادون يسلمون من الخطر حتى يرشقون نوى التمر . هكذا سلوك البشر ، ووجوه الشبه كثيرة بين البشر والقردة .

« ولم الإجازة ؟ » سأل التمساح بريبة . « أريد أن ألتهمك ، وهذا ما سأفعله » . شبك القرد الصغير يديه الطويلتين فوق صدره وألقى إلى التمساح نظرة المتفوق ثم قال : « إن كل الناس المحترمين في الصحراء هم أصحاب إجازة ، أما من ليس له إجازة فيعتبر غير شريف . ولكن للحصول عليه يجب أن يكون لديك ما ليس لدى الغير » .

« لن يطول الأمر حتى أقبض عليك » فكر التمساح منزعجاً ، ولكنه أخذ يقلب الأمر في ذهنه لأنه كان يتمنى أن يصبح شريفاً . ولما كان دماغ التمساح من الحجم المتواضع ـ إذ كلما تزداد سعة الفم يصغر حجم الدماغ ـ فقد نفدت قدرته على التفكير بسرعة . سأل أخيراً : « قل لي ، أين تعطى الإجازات ؟ » فأجابه القرد : « تعطى الإجازات عند لجنة الإجازات الصحراوية وهي عبارة عن مكتب » .

فكر التمساح على مهله ثم قال مستفسراً : « وكيف أصل إليه في أسرع وقت ممكن ؟ » وأضاف : « على ألا تكون الطريق إليه طويلة وأن تبقى أنت هنا في انتظاري . يجب أن أتأكد من ذلك » .

« بكل تأكيد » قال القرد الصغير وفرك يديه فرحاً : « يقع المكتب ـ وشأنه شأن كل المكاتب ـ في الصحراء . أتمنى لك النجاح ! » .

زحف التمساح إلى ضفة النهر فسار متمهلاً في طريقه إلى قلب الصحراء . بعد حين وصل إلى كوخ خشبي حيث توقف قليلاً وهو يفكر : « ها أنذا ! » كلام ولا شيء وراءه . أما هذه المرة فقد صحت العبارة إذ أعلنت على الكوخ بأحرف كبيرة : « لجنة الإجازات الصحراوية شركة محدودة (العقل) » . في هذه اللحظة ترك الكركدن المكتب بهزة وديعة من رأسه . وأما التمساح فدخل إلى المكتب حيث وقف أمام أعضاء اللجنة .

كانت اللجنة تتألف من الجمل وأبي سُعْن(*) والفهد . وكانت وظيفة الجمل التسجيل في المستندات وترتيبها وغيرها من أعمال الكتابة ؛ تدلت شفته السفلى من وجهه تعبيراً عن خضوعه التام وحول عنقه وسام الشرف الصحراوي العام على شكل طاحون بألوان علم البلد . وكان أبو سُعْن أصلع وقد شغل منصب المستشار القانوني . أما الفهد ، ممثل السلطة الشرعية ، فكان جالساً عند مكتبه منهمكاً في العناية بأظافره .

وحينما رأى التمساح أن اللجنة كلها كانت صالحة للأكل حرك فكيه بصوت مسموع من شدة الشهية .

« كفى صوتاً » صرخ الفهد غاضباً : « إنه مما يثير الأعصاب » .

انزعج التمساح ولكن رغبة في الإجازة وضع الفك العليا على الفك

السفلى بتواضع وامتنع عن إصدار أي صوت آخر .

« ماذا تريد ؟ » سأله الجمل ورفع شفته السفلى .

أجاب التمساح : « إنني أريد إجازة » .

« ولأي شيء ؟ » .

« هذا لا يهمني على الإطلاق » قال التمساح . « إن شئتم لأجل شهيتي »

قال الفهد متدخلاً : « أمر مضحك الشهية موجودة لدى الجميع » .

« إذن فلأجل فمي الضخم » اقترح التمساح بقلب منكمش من الخوف وفتح فمه على مصراعيه طالباً الاستحسان .

« فعلاً ، فمك كبير جداً كما نرى » ، لاحظ أبو سُعْن بصفته مستشاراً قانونياً ، « ولكنك لست الوحيد الذي له فم كبير بل كثير من البشر لهم فم أكبر من فمك بكثير » .

ذرف التمساح دمعتين من دموعه المشهورة لضخامتها وحدق ببلادة وحيرة في اللجنة التي كان أعضاؤها كلهم صالحين للأكل . ولكن بعد ذلك ساوره الغضب وأخذ يحرك ذنبه المدرع بعنف من جهة إلى أخرى إلى أن قال منزعجاً لاهثاً من ضيق التنفس : « ولكن لا بد لي من الإجازة » .

« اسكت ! وإلا ستطرد من هنا ! » صرخ الفهد وضرب بكفه على المكتب .

« أجل أسكت » هدر الجمل وقد أسدل شفته السفلى معلناً عن خضوعه وهو ينظر بطرف عينه وبهمّة الخدام نحو الفهد .

« لو سمحت لي بنصيحة » ، لثغ أبو سعن بكل أدب ليهدىء الجو ، « أنا لو كنت محلك لطلبت إجازة لأجل أسناني . فكما لاحظت حينما فتحت فمك الجدير بالاحترام أنه يتميز بسعة عظيمة وهو على كل حال فريد في

نوعه . ويمكن تسجيله تحت أنواع المفرمات » .

« هيا بنا » ، قال الفهد موجهاً كلامه إلى الجمل وهو يمسح خطمه .

« أسمعنا المسجلات ! » فقرأ الجمل بصوت هادر وبحرص شديد على الرتابة لأنه كان من ذوي الرأي القائل بأنه لا يليق بموظف صغير أن يبرز كلمة دون أخرى من تلقاء نفسه .

« إجازة رقم واحد للأفعى ذات النظارة لأجل صورة النظارة على رأسها ،

قسم بصريات ،

إجازة رقم اثنان صاحبها الكنغر لأجل جيبه على البطن ،

قسم نوفوتيه ،

إجازة رقم ثلاثة صاحبها الكركدن لأجل قرنه على الأنف ،

قسم مجوهرات » .

« بإمكانك أن تختار بين إجازة انكليزية وألمانية » قال أبو سعن للتمساح ، « وتجد على الإجازة الألمانية العبارة Made in Germany وعلى الإجازة الألمانية العبارة Facon de Paris » .

« وأيهما الأفضل ؟ » سأل التمساح مرتاباً .

« إنها مجرد مسألة ذوق « أجاب أبو سعن : « فالكنغر مثلاً اختار الإجازة الإنكليزية مراعاة للظروف السياسية والاجتماعية السائدة في أوستراليا ، بينما اختار الكركدن دون تردد « Facon de Paris » لاهتمامه بالأناقة فقط .

« أنا أريد الاثنتين » قال التمساح .

« هذا غير ممكن » اعترض أبو سعن وهزّ جنحيه متأسفاً . « ولكن ، بما أن بضاعتك من نوع المغرمة أنصحك أن تختار الإجازة الإنكليزية » .

« كفى » صرخ الفهد . « واكتب : إجازة رقم أربعة ، صاحبها التمساح لأجل مفرمة - في فمه - يعني قسم أدوات المطبخ ، والسلام عليكم » . قال الفهد ونهض من مكانه واضعاً ذنبه بين كفيه وفق الرسميات ثم ترك المكتب مقرقراً ، فقد انتهى دوامه في المكتب .

حرر الجمل الإجازة وسلمها أبو سعن للتمساح محذراً فقال : « خذ بالك ، فإن الإجازات لا تجدى إلا للزينة وهي مصنوعة بطريقة الوهم الذاتي من مادة التقليد المتماسكة تماسكاً بالغاً وهي ماد صعبة الهضم - وبالمناسبة ، هي طريقة عالمية ، لذلك إيّاك أن تبلعها . ثم استأذن قائلاً : « تشرفنا » وانصرف بلباقة ليتناول فطوره الذي تكوّن من دودة طويلة غلفتها زوجته في ورق زبدة .

والجدير بالذكر أن أسرته كانت تسكن بجوار مستوطن أوربي فكانت متحضرة جداً ، ومن هنا جاء ورق الزبدة والمعلومات الشرعية .

حينما رأى التمساح المستشار القاموني يتناول فطوره خارت قواه . لذا أخذ بمنتهى الرقة الإجازة بين أسنانه وانصرف مسرعاً نحو ضفة النهر بغية التهام القرد الصغير . ولكن القرد الصغير لم يعد يرى له أثر .

« ما أقل وفاء الناس بوعودهم هذه الأيام » فكر التمساح : « لا غريب إذاً أن يجاز القديم والمتين » . وانتفخ كبرياء ثم غاص وسط الوحل العميق .

هكذا ظل مستلقياً عدة ساعات حتى إذا ما جاء المساء وتجمع خلق كثير في النهر وعلى ضفتيه لتناول وجبة العشاء مرّ به تمساح صغير وهو يسأل : « لماذا لا تأكل شيئاً ؟ » ظهر على هذا الصغير علامات الشبع والرضا وقد بلع بطلاقة وجه بقايا قريب له .

استعصى الكلام على التمساح فلثغ متغطرساً : « إنني لتمساح مجاز ، ولا أستطيع أن آكل لأن إجازتي في فمي ، أما بالمقابل فقد أصبحت شريفاً » .

« أنـا من ناحيتي أفضـل الشبـع » قال التمسـاح الشـاب ثم تابـع : « فعـلاً ، منظـرك يدل على أنـك لم تأكـل شيئاً منذ الصباح ، فلونك الأخضر الطبيعي قد تحول إلى رمادي خالص . أجل ، ضع إجازتك على ضفة النهر ، ثم تناول العشاء » .

دخـل التمسـاح في صراع نفسي - إذ بلغت رغبته في الأكل أوجها - أدى به أن يلثـغ أخـيراً بشق النفس : « لا ، والله لا ، سوف تسـرقهـا القـردة وهي على الضفة » .

« ابصقهـا إذاً » ، قال له التمسـاح الشـاب بلا حيـاء : « فماذا تفيـدك الإجازة ؟ إذا كانت الإجازة أن يحملها صاحبها باستمرار في فمه فمن الأفضل أن يستغني عنهـا لأنهـا تمنعـه عن الطعـام وعنـدئـذ يصبـح فريسـة للآخـرين الضاحكين عليه » .

هذه هي سنة الحياة ، وغني عن القول إنها تخص جنس التماسيح لا غير .

استمر التمساح بلا حركة . لقد احتفظ بالإجازة في فمه وحدق إلى ابن عمه بشراسة ونهم . وتابع الأخير : « إذا كنت تفضل أن تتمسك بإجازتك في الفم فلعلك تسمح لي أن أتناول كفك الخلفية تحلية » .

تقلب التمساح من جهة إلى أخرى لشدة الخوف والغضب فإذا به يبتلع في حالة الانفعال إجازته . ولا يلبث أن يشعر بغثيان شديد لم يشعر بمثله طوال عمـره ، وفي نوبـة من الغيبـوبـة العميقـة سار مع التيـار وفي الحـين هجم عليه التمسـاح الشـاب ليلتهمـه بمشاركة بعض الأقرباء الآخرين المتعاطفين . وهنا تنتهي هذه القصة الحزينة .

* * *

(*) أبو سُعْن : طائر من فصيلة اللقلقيات

الغنم الأزرق

للكاتب السوفييتي : ايفجن غتسالو

ترجمة : صلاح الدين مقداد

إيفجن غَتْسالو كاتب أوكراني في الثالثة والثلاثين من عمره . اقتفى ، في البداية ، نهج أبيه ، الذي كان يعمل معلماً في قرية ، من إقليم فينِتسا ، فتخرج من كلية تدريب المعلمين . ولم تمر فترة طويلة ، حتى تأكد أنه يتوق ، في الحقيقة ، ليكون كاتباً ؛ لا سيما أن الكتابة ذات صلة متينة بالتعليم . ألا يعلِّم الأدب الناس كيف يمكنهم تذوق الجمال ؟

طبع أول كتاب ، تضمن قصصه ، منذ اثنتين وعشرين سنة ، تحت عنوان (الناس بين الناس) ، ثم صدر (تفاح من بستان خريفي) عام ١٩٦٤ ؛ و (الرعد المتأخر) عام ١٩٦٧ ؛ و (كلافا ملكة القراصنة) عام ١٩٦٨ ؛ ومجموعة قصص أخرى .

يقترب نثر غتسالو من الشعر ، على نحو ملحوظ ، مما طبعه بالدفء الزاخر ؛ وجعله ، على الأخص ، نابضاً بالحياة ، وذا نوعية تصويرية أخاذة .

ولا تلاحظ وفرة للحدث في قصصه . إنه يفضل الكتابة عن الصلة بين العالم الداخلي لشخصياته ، التي غالباً ما تمثل سكان الريف ، والعالم الخارجي .

يتميز هذا الكاتب بقدرته على النفوذ إلى الجمال الخفي ، الكامن خلف

الأحداث ، العادية والمألوفة ، في الحياة اليومية ، إلى حد بعيد . وتتنوع قصصه ، من خلال تنوع الشخصيات ؛ فبعضها يعتبر رسماً فيثارياً مصغراً للواقع ، والآخر دراسات نفسية . وبعضها مجرد قصص قصيرة عادية وله أيضاً مقالات ، وصور وصفية أدبية . .

الغنم الأزرق

كان يقع خلف الكوخ حقل كبير ، يبدو أبيض في الشتاء ، قاتماً في الخريف ، أزرق ضبابياً داكناً في الربيع . لكنه يفتح حضنه أثناء الصيف ، لتتمايل سنابله ، برشاقة ، مرسلة تموجاتها الناعمة ، مع لحن الحفيف العذب ، فيطفو زبد متقد أصهب ؛ بينما تداعب الشمس أعرافها برقة ، باعثة فيها النضج . وما إن يحل الظلام حتى يستغرق الحقل ، مثل طفل ، في سبات عميق ، يسكب القمر المنجلي على وجنتيه ، شفافية مبهمة . وتلتمع ومضة هادئة شهباء في أخاديده ، وصفراء زيتية على هاماته . بماذا يحلم الحقل وهو يرقد هناك ؟ هل يحلم بالقمر السامق ، الذي يداعبه بغزال لا ينقطع ؟ أو بالجياد ، وهي تنطلق ، طاوية الأرض ، في غابر العصور ؟ أم بآخر كلمات الفرسان المحتضرة ، التي تحولت ، منذ أمد ، إلى همس ينساب في الأذن ، أو إلى أغنية ريح شفافة ؟ أم هل يحلم بالغد ، والظلال تكسو صدره ، على لحن ذاك الحفيف العذب ، وقد أحيطت ببحيرات أشعة الشمس الريانة ؟

تمكن (تِمْش) ، وهو أصغر ابن لحداد القرية . أن يقضي ساعات طوالاً ، يقلب ناظريه عبر ذلك المنحى ، من نافذته التي تطل على الطريق المؤدية إلى ذلك الحقل . آه . . تم العثور على ما يصبو إليه . إنها تقع على مسافة منه . ها هي تدور بعنف ، وتلتف وتدنو متدحرجة ، وتتراقص قليلاً :

إنها دوامة الريح . تثير النقع ، وتعصف بالقش وأوراق الشجر ، وتكبر ، وتتسع . ها هي تقترب الآن من الكوخ ، وتحجب المشهد الخلاب ، فليس ثمة حقل أو سماء . لقد غزت القرية ، وازداد اتساعها ، وعلوها ، ثم انفجرت مثل فقاعة ، مخلفة ، في الوسط ، سويقات نباتية ، قليلة ، مرتعشة ، وريشة اوز وحيدة . وعادت السكينة ، إلى الطريق مجدداً . كما بدا كل شيء خامداً ، ومنزوياً . وعندما تلاشت ، داخل نبات الجاورس ، كان يسترها سديم باهت ، ضارب إلى الزرقة .

قالت له أمه : إياك أن تنظر إلى دوامة الريح .

- لماذا لا أفعل ذلك ؟

- لأني هكذا أقول . لا تحاول أن تقتحم واحدة منها أبداً .

- لماذا ؟

- لأنها ستلفك وتحملك بعيداً .

- إلى أين ؟

- كلا . ذلك أكثر مما يمكنني الإجابة عليه . لكن ربما إلى السماء . !!

انسل (تمش) من الكوخ ، وجرى نحو مكان السويقات ، التي ما زالت ترتعش . ربما لم تضمحل الدوامة تماماً . قد تكون مستلقية لتنال قسطاً من الراحة ، كلا ، لا شيء يدور ، وعلى نحو مفاجىء بدأ شيء ما ، بجانب منزل دوماشا ، يتخذ شكلاً لولبياً ، ويضطرب ، ويرتعش ، إنها دوامة تنبثق من جديد . لم تندفع بعد ، بل ما زالت تستجمع شدتها ، ركض الولد حتى أحس برأسه يوشك على الانفجار ، ثم قال مخاطباً نفسه :

- ليتها لم تبتعد !

بيد أن هذا ما وقع . استهلت اندفاعها واهتياجها باعتدال . ثم بشدة

أقوى مكنتها من القفز إلى الطريق ؛ فكادت أن ترفع الحصان والعربة ، وتمسك بالعجل . تبعها الولد بأقصى سرعته . كان سيلحق بها . لكنها وثبت ، خلال لحظة ، نحو قطع من الأرض ، المزروعة خضاراً ، حيث لفظت أنفاسها بين الأقنية ، مخلفة قطعة ورق ، منفردة ، استمرت ترفرف في الهواء ، حتى سقطت في الماء أخيراً .

رأى تِمْش ، مرة أخرى ، شيئاً ما ، نابضاً بالحياة والرهبة ، يتحرك ويهتز ، في شارع القرية ، فوق بريكات جافة ، صغيرة . عندئذ ، لم يتوان عن الانتقال ، حالاً ، إلى المكان ، متوقعاً أنه سيدور ويكبر . فأخذ يترصد ، واضعاً قدماً هنا وأخرى هناك ، لا بد من القبض عليها هذه المرة ، ولا ينبغي التخلف عنها ، تضاءلت الدوامة الوليدة بضعف ، بدلاً من أن تزداد نمواً وشدة ، ثم استكانت لفترة ، كأنها تقبع للتأكد من نجاح حيلتها . وفجأة اندفعت بوثبة نحو الأمام ، تلتها أخرى ، وانطلقت ، حاول أن تلحق الآن !

سألته أمه في المساء :

ـ أين كنت طيلة هذا الوقت ؟

ـ أوه . مع الأولاد .

لم يجرؤ تمش أن يفصح عن مطاردته للدوامات .

جلس تمش ينظر إلى الأفق ، فلاحظ هناك غنماً يهرول ، ويتناثر منه صوف أزرق ، ويستنشق ضباباً ضارباً إلى الزرقة ، ثم يختفي . من أي مكان أتى هذا الغنم ، الذي يرى قطيعاً إثر قطيع ، وأين يمضي جميعه ؟ وأي حظيرة تتسع لكل هذا ؟ ليس إلا السماء فقط .

كان يتعذر سماع صوت الأغنام ، وهي تحلق متمايلة ، ثم تختفي ليظهر

غيرها ، ليحذو حذوها قصياً وموحياً بالدفء ، وتتابع أمامه هذا المشهد ، إلى أن بدا العالم كله يعج بالغنم الأزرق ، حيث غطى الحقول ، وامتد صوفه ملتفاً بين الأكواخ ، وأخذ الثغاء يملأ أذنيه بتأثيره الخلاب السرمدي . فرك تمش عينيه ليزيل عنهما هذه الرؤية ، دون جدوى ، فما زال الغنم يثابر على الهرولة ، فوق الأفق ، الواحد تلو الآخر ، وسحابة إثر سحابة ؛ بينما يتناثر الصوف الأزرق منه ، ويبعث بأنفاس ضاربة إلى الزرقة أيضاً :

ـ أوه . . أرجوك خذني معك !

لم يصدر عن الرجل حتى التفاتة . وانطلقت عربته من القرية ، مارة بأشجار الحور ، وسمع جلبتها تنتشر في عالم الضياء بين الحقول ، يغمرها فيض الألق اللانهائي .

ما زال الغنم يهرول ، لا بد أن أحداً ما ، غير مبال ، قد أخرجه ؛ فأصبح الآن ينعم بمتعة الحرية . هيهات أن تعيده إلى الحظيرة !

ـ أرجوك خذني معك !

سقطت كلمات تمش تحت العجلات ، فسحقتها حوافر الجياد ، وامَّحت بين ذرات التراب ، وتلاشى التماسه في الجلبة التي اضمحلت بدورها ، حينما تناءت العربة ، عن القرية ؛ بينما مدت أشجار الحور أعناقها ، وكأنها تسترق السمع :

ناشد تمش مرة أخرى :

ـ خذني معك !

ولكن دون مجيب .

تورد الأفق ، وأخذ يتوهج متوقداً ، وما زال الغنم يهرول في سباق دائم ، فوق متن الأفق الواهن .

تناولت الأسرة طعام العشاء تحت شجرة الكرز . وكان الأب يجلس صامتاً ، بعد عناء يوم شاق ، وعليه قميص أبيض رقيق .

سأل تمش : « ماذا كان يهرول فوق الحقول ، طيلة النهار ، على مسافة نائية نائية ؟ » .

التفت أبواه ، ورمقاه باستغراب .

ثم أضاف : « إنه نوع من الغنم ، أليس كذلك ؟ » .

قال هذا وهو غير واثق تماماً .

أجابت الأم : « إنه السراب الناجم عن الحرارة » .

قال تمش متنهداً وكأنما أصيب بخيبة أمل : « سراب ؟ » .

لم ينبس الأب بكلمة ، وظل غارقاً في صمته . فأوصى هذا لابنه بأنه اعتراض على إجابة والدته . إذن ليس ما رآه سراباً ، بل ربما كانت قطعان غنم حقاً ، لكن ما يثيره هو : أي نوع من الغنم ذلك ؟ لكنها قد تكون دوامات أيضاً .

نصح أبواه ، بعد خروجهما ، بأن (يلزم البيت) . كما أحس بضرورة التشبث به ؛ وكأن المنزل سيحلق بعيداً ؛ أو أن أحداً ما سيسرقه . وتساءل : « هل ثمة أحد على وجه البسيطة سيقدم على سلب أبوابهم ؟ أو اختلاس العامود الذي علق عليه البصل والأواني لتجف ؟ أو يجرؤ على اقتحام البوابات الكبيرة ونهبها ؟ ومهما يكن ، فإن رغبة أبويه أمر . لذلك ينبغي عليه البقاء

ومراقبة المكان . ولكن سرعان ما تسرب إليه السأم والفتور . فأرسل ناظريه مع المجاز الممتد عبر الحقل .

كان الموج يرمي بثقله على نبات الجاورس ، المتشابك كالجدار ، خلف المنـزل ، فيميـل منحنيـاً ، ثم يتخلى عنـه ، فيستقيم منتصباً ؛ عندئذ ، يرتد إليه ، ليحني هاماته ، مرة أخرى . وامتد بصره ، فشاهد وشاحاً أبيض ، يطفو على متن المـوج العـالي ، مثـل جناح طير . إنهـا امـرأة تظهر وتختفي ، وكأنها تصارع الغرق . كانت خصل شعرها الغزيرة ، الشبيهة بالريش المتطاول على رأس بعض الطيور ، تشد على كتفيها ، بفعل قوة الماء . ومن خلال ما أحدث حفيف الشعـر من اتقـاد مؤلم ، تراءت له كأغنيـة مفعمة بالحياة . وعندما جال بنـاظـريـه نحـو السماء ، رأى صقراً متربصاً ، يبحث عن ضحية . ها هو يجد ضالتـه ، سيقـذف في الحـال كرة شريـرة . ستـولـد دوامـة ! ها هي بدأت ، انـدفـاعـاتهـا بالتأكيـد . إنهـا تتراقص في المكـان ذاتـه . لا بد أنهـا ترغب في الانطـلاق ، والالتفـاف السريـع ، نحو الغنم الأزرق الذي كان يهرول على نحو مسعور .

اصمـد أيهـا المنزل ، وأنتن يا نوافذ راقبن كل من يمر ، أويقوم بزيارة ، أثناء غيابي .

« أين ستذهب ؟ » تمتم شجر الجميز ، ثم همس مع شجر الحور بطريقة توحي بالتـآمـر ، فتـوقف تِمْش ليستجـلي الأمر ؛ وحينها تحقق أنه الجميز ، ليس غير ، تابع حثيثاً .

كان الدرب أخاذاً للغاية ، على نحو يجعلك تجري معه إلى الأبد . ثم توقف بين السنـابـل ، وألقى نظـرة تفقـد ، إلى الوراء ، نحو البيت ، فوجده محتجباً . لكنـه لاحـظ أن شجـر الجميـز والحور ما زال يتبادل الهمس حول أمر

يهمها . داس تمش ، على الأرض بعنف وضرب جسمه وتحفز على كعبيه ، ثم صهل وانطلق يعدو بأقصى سرعة يملكها . استثار بذلك شجر البتولا ، فلاحقه بعيونه البيضاء ، دون أن ينتبه تمش لهذا الاهتمام . وعلى الدرب ، قدمت له أزهار العنبري ابتسامات زرقاء وبادلها ذلك ، وسفعت الريح دموع تويجات نبتة خشخاش ، مزقها أثناء عدوه . وانهمر دمع أحمر من وردة أخرى ، وبكت ثالثة ، وما زال يعدو . أما الصقر فانقض يحلق فوقه بانخفاض ، مما أثار ريبته كثيراً . عندئذ نادى إلى الصقر مهدداً : « أنت بالتأكيد تحاول أن تنقرني . سأرد عليك بما تستحق » .

جنح الصقر مبتعداً . لا بد أن الفزع قد تملكه ، فشعر تمش بالسعادة تغمره . ثم ناداه مرة أخرى محذراً : « إياك أن تسرق أي كتكوت أيضاً » .

مر بعد ذلك بسلحفاة أمريكية ، كانت تنتصب مثل عامود قصير ، عند حافة الدرب . فلما رأته ، نزلت كالبرق على قوائمها الأربع ، وراحت تحث السير ، بكل طاقتها ، وصعدت على جوانب كومة تراب ، ثم اختفت .

جلس تمش القرفصاء ، عند الحفرة التي ظن أنها توارت فيها ، فلاحظ وجود عدة آثار قربها ، وحبوب مبعثرة . وعرف أنها تكمن في الداخل عند مدخراتها .

قال تمش : « اخرجي أيتها السلحفاة الأمريكية ، اخرجي لأراك » .

لم يصدر أي صوت من الحفرة ، لا صرير ولا حفيف . ثم أضاف :

- « لن أجبرك على الخروج بواسطة الدخان أو الماء ، دعيني أراك فقط » .

لكنها لم تظهر حتى طرف أنفها ، يبدو أنها خائفة :

ـ « أنت ساذجة . . تظنين أني أطمع بجلدك ؟ اعلمي أن لدي قبعة ، وياقة أيضاً » .

ومع أن اعتقاداً خامره بعدم وجودها إطلاقاً ، فقد تابع :

« يمتلك أبي قبعة أيضاً ، لا تخافي ! » .

وتذكر أمه فقال :

« ولـدى أمي جميـع أنـواع الشالات . ولا ترغب بلمس جلدك . أوه ، حسناً ، لا . . لا تخرجي إن لم ترغبي ! » .

قفـز بعـدئـذ وغـادر المكـان منطلقاً كالدوامة التي تكبر خلال لحظة ، ثم تنشـر أذرعتهـا بقـوة شديـدة وتنـدفـع محلقـة ، على طول الـدرب وفـوق بقايا الحصـاد ، مبتعـدة عبر العـالم الفسيـح ، وظل يعدو مثل دوامة صغيرة ، يغني ويغني ، وكأن شمساً تخفق داخله ، وتتوهج لتسكب لحناً عذباً .

عندما خرج تِمْش راقبه البيت إلى أن أصبح غير قادر على ذلك ، حيث اختفى وراء الأشجار ، بينما واصل شجر الجميز والحور متابعته باهتمام .

كانت قطعـان الغنم تهرول أمـامـه ، قطيعـاً يومض إثـر آخر ، في أشعة الشمس ، وهي تنثر صوفها الأزرق ، يا لها من أعداد متزايدة ! أين تذهب جميعها ؟

أخـذ تِمْش يثغـو ، مخاطبـاً الغنم لعله يوقفها . حبذا لو توقف واحد منها فقـط ، وقفـز بين نبـات الجـاورس . إنها قطعان تساق بقوة مجهولة ، ربما بتأثير رعب خفي . ثم استأنف الثغاء ، مرة أخرى دونما جدوى .

لم تنشـط الحـرارة ، بعـد أن وصلت درجـة الإنضـاج حتى التفجـر .

عنـدئـذ ، شعر بهاتف يقول : انتبه . يمكنك سماع الإحساس بلذعات أشعة الشمس الحـارة ؛ وسـماع الصمت العميق في صيف ساخن ؛ إنـما حاول أن ترسم في مخيلتك رموزاً مماثلة للبرد ، فإنك لن تستطيع . واعلم أنه ستظل تهب على مر الأيام لفحة ريح حارة ، ثم تضمحل ، كأنها لم تكن . هذا كل ما في الأمر .

انتصب تِمْش لمدة لحظـة ، وتـابـع العـدو وتـوارى بعيـداً ، مثـل دوامـة صغيرة ، اندفعت مع الدرب ، إنه سينشر جناحيه ، ويحلق وهو يثغو مسروراً :

ـ با . . با . . با . . باء . . .

عن مجلة : Soviet Literature

المرصد الأدبي

لقطات من رحلة ثقافيّة إلى الاتحاد السوفيتي

● د. حسام الخطيب ٩/١٢/١٩٨٤

أخبار أدبيّة من العالم

● إعداد: عيسى فتوح

لقطات من رحلة ثقافيّة إلى الاتحاد السّوفييتي

٩ / ١٢ / ١٩٨٤ • د. حسام الخطيب

بدعـوة من الرفيق

نيقولاي فدرنكو ، رئيس تحريـر (الآداب الأجنبيـة انسـترانـايا لتراتـورا) ، في موسكو قام الـدكتور حسام الخطيب ، رئيس تحرير (الآداب الأجنبيـة) وعضـو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب بزيارة ثقافية إلى الاتحاد السوفييتي من ٩ ـ ١٩ كانون الأول عام ١٩٨٤ .

ويقـدم الـدكتور الخطيب هنا بعض لقطات من رحلته الممتعة والمهمة إلى موسكو وكييف .

١ ـ من المطار إلى البرنامج

منطقـة مطـار موسكو بحر ثلجي أبيض (غير متوسط) ، ولكن تتوسطه جزيـرة من الأبنيـة يفترض أن تكون أبنية الإدارة . تقترب الطيارة من البياض الناصع الفسيح المشعّ ليس بالبر د حتماً ، ولكن بالبراءة .

كيف ستحط الطيارة في هذا البحر الثلجي ؟ وكيف يستطيع الطيار أن يتبين سمت المدرج ؟

وهل هو ماهر بما فيه الكفاية ؟ إن هذه الأسئلة كانت ترد على كل شفة وكل لسان في قلب الطيارة غير المكتظة بالركاب . ومن قريب يبين أسطول كاسحات الثلج في مطار موسكو .

وبعد لأي يتبيّن المرء أن هناك بشراً يتحركون كالمعتاد وكما يحدث في كل المطارات ، ويتضح تماماً أن هطول الثلج (غير الكثيف) لا يعني عندهم الشيء الكثير . المهم أن الطيارة تنساب بهدوء ورويّة . . وتدرج وتدرج (taxy) إلى أن تبلغ خرطوم المطار رقم ٢١ بعد أن تكون قد قطعت على أرض المطار سفرة غير هينة .

بعد هنيهة تسلم جوازك لرجل أمن شاب يجلس عند حاجز الجوازات داخل كشك صغير وعند الطرف الآخر من الحاجز يقف المستقبلون الثلاثة من السوفييت . رجلان وامرأة . يسلمون عليك ويبدؤ ون بفتح موضوعات مثيرة والجواز ما زال بيد الجندي الشاب . يلفت نظرك أن المستقبلين (الذين تلقاهم لأول مرة) يكلمونك بطلاقة . تتشوّق لأن تجتاز الحاجز لترد عليهم التحية بأحسن منها . تستدير إلى حيث يظهر رأس الجندي من وراء الدفّة العريضة التي تتصدّر كوّته التي يجلس فيها .

بدلاً من أن يسلمك الجواز المختوم ، ينظر إليك بتفحص . وتنضمُّ إلى عينيه المحدقتين عينا زميل له إلى جانبه . وتحسّ أنك تحت أشعة ليزر لعيون أربع خُزْر تحاول أن تخترق الحجب تنظر العيون في الصورة المُثبتة على الجواز ، ثم تمسح وجهك وجسمك برشقات استطلاعية محكمة . وتقول المستقبلة السوفييتية : « إنه جندي شاب يجرب فرصته ، لا عليك . . . » .

وتطول المسألة . . . بالطبع ليس من قلق فأنت في دعوة صداقة وأوراقك سليمة مثل مسك (القيمرية) المرحومة . ويخطر لك :

أنهم موجودون في كل مكان أولئك (المسؤولون) عن أمن المواطن والمكلفون بإيقاظ إنسان هذا العصر من حلم كل سفر . وتتذكر مقالاً قرأته منذ أكثر من شهرين للروائي البريطاني (فرانسيس كنغ Francis King) في جريدة (الغارديان / ٣٠ ايلول ١٩٨٤) . . . وقف فرانسيس كنغ الوقفة نفسها ، ولكن ذاك كانت له مشكلته . فصورة جوازه ، كما يقول ، محلاّة بشاربين ، ووجهه إذ ذاك كان عاطلاً حليقاً ، وحار الجندي الشاب والتجأ إلى الرتب الأعلى ، وأخيراً قبل شهادة المرافقة السوفييتية . ولكن أنت منذ زمن حلقت الشاربين إلى غير رجعة . . . منذ عام ١٩٦٧ حين رأيت على التلفاز ، في بلد أوروبي ، صور آلاف الأسرى العرب في حرب حزيران ، قسماتهم كلها هزيمة ، وقاسمهم المشترك هو الشاربان .

وتلتفت إلى مضيفتك السوفييتية أولغا ، وتطلب إليها في قلبك أن تقوم بدور مثيل للدور الذي قامت به زميلتها مع فرانسيس كنغ قبل شهرين في المطار . . وكأنما تتلقى الرسالة روحياً فتقول للجندي الشاب شيئاً بالروسية لا تستطيع أنت أن تخمن مضمونه . . . وتبتسم الفتاة وتنصحك أن تتذرع بالصبر أو تتحلى به .

وأخيراً وبعد لأيٍ أو لأيَيْنْ ، يطقُّ الجندي الخاتم على الجواز . . ولا تستغرب ما حدث فذلك يحدث في أحسن العائلات (هل يجب أن تقول / الأُسَر) بضم الهمزة لتكون جمع أسرة . سامحونا هذه المرة فقط لأنه مثل شائع . !!

وتتذكر كيف علق فرانسيس كنغ على هذه الوقفة ، وكيف عمل من

الحبـة قبـة ، وعـدّ هذه الـواقعـة فاتحة شؤم لزيارته ، كأنهم في بريطانيا يقولون للإنسان تفضّل ولو كانت صورتك غير مثبتة على الجواز !!

فرانسيس كينـغ ، سنـذكـر مقـالتـه بعد قليل ، لأنها بسبب هذه الوقفة ستظل على الأقل لمدة يومين كاملين مسيطرة على الذهن .

المهم أن الإجراءات الأخـرى تتم بسهـولة ويسر ، ويحيطك المستقبلون بمودة دافئة تنسيك التأثير النفسي - على الأقل - لذلك البحر الهادىء الأبيض المفعم بسـرّه الخـاص الـذي تقع في قلبه جزيرة المطار يقولون لك : غدا نناقش البرنامج ، والبرنامج مفتوح ، ففكر وقل لنا في الصباح ما الذي يمكن أن نعدّه لك .

في فنـدق (سوفيتسكـايـا) التقليـدي العـريق ، ذي الأبهـاء الـواسعـة والغـرف الممتـدة طولاً وعـرضـاً وارتفاعاً ، تحسّ أنك في كنف أحد القياصرة . تتـذكـر التاريخ العظيم للقارة السوفييتية وتنظر حواليك في الفندق فتكتشف أن العـمارة القـديمـة الشـامخة ما زالت قائمة ، ولكنها الآن (مطعّمة) بكل ما هو حديث وشعبي واشتراكي وممتد الصلة بالحياة المعاصرة كأنهم احتفظوا بالشكل القـديم ، كلما أمكن ذلـك ، ولكن أبـدلـوا بمضمـونه العتيق مضموناً جديداً يناسب يومهم وعصرهم .

ألم يفعلهـا كارل ماركس من قبـل مع جدلية هيغل ؟ فكان الدياليكتيك وكـانت المـاديـة التـاريخيـة !! تفكر في البرنامج . منذ زمن طويل لم تزر الاتحاد السـوفييتي . ما هو الثـابت ومـا هو المتحول ما الجديد وما القديم ؟ لا تعرف . وتخشى أن يكون الأصدقاء العرب الذين تعرفهم هنا مشغولين بشيء آخر غير الثقافة ومؤسساتها. تذهب في الصباح إلى مقر اتحاد الكتاب السوفييت . واضح أنك لم تهيىء شيئاً . فأنت في رحلة اطلاعية ثقافية . لم يكن هناك مؤتمر ، ولا

مباحثات رسمية ولا لجان تحضيرية ، ولا بيان ختامي ، ولا مواعيد عمل ضاغطة ، وإنما هي دعوة لقاء وتعارف ومناقشة من مجلة الآداب الأجنبية عندهم (انسترانايا ـ لتراتورا) إلى مجلة (الآداب الأجنبية) في سورية العربية .

وتقول لهم :

ليس لي طلبات خاصة . كل ما أريده هو الحوار والمناقشة وتبادل الأفكار والاطلاع على المؤسسات ذات العلاقة بالأدب والثقافة .

بعد أن تقول هذه الجملة ببساطة وبالجملة لا بالمفرق ، ينظرون إليك بشفقة ويهزون رؤوسهم ، ولو كانوا يعرفون عادة ثني أصابع اليد وهزّها على سبيل التهديد لفعلوا . ولكنهم يقولون بهدوء :

ـ طيّب . . سنريك .

وتنهال الاقتراحات ويكتمل البرنامج :

فيدورنكو ، الآداب الأجنبية ، مجلة (مسائل الأدب) ، مجلة (الصداقة بين الشعوب) ، مجلة (الأدب السوفييتي باللغات الأجنبية) ، دار نشر (الكاتب السوفييتي) ، معهد الأدب العالمي في جامعة موسكو ، معهد غوركي للأدب ، وغيره وغيره . أما المتاحف : غوركي ، وبوشكين ، ولينين وغيره . وقبل كل ذلك معرض للرسم السوفييتي .

كل من في المؤسسات يقول لك :

ـ تفضل . أسهم معنا بالطريقة التي تشاء ، نريد أن نعرف المزيد عن الأدب العربي ، وعن الثقافة في سورية ، وعن اتحاد الكتاب لديكم ، وعن أفكاركم . . هذا يريد مقالاً في عشر صفحات ، وذاك في خمس عشرة

صفحة . وآخر يريد مراسلة دائمة .

وترفع رأسك لتتنفس الصعداء ، ولسان حالك يقول : هؤلاء القوم لا مجال للمزاح معهم إلعمل هو الشيء الذي يريدون .

٢ ـ آداب أجنبية وترجمة وانفتاح

ـ الآداب الأجنبية والانفتاح .

ـ رؤية انكليزية غربية ـ ضرورة التفريق بين الغزو الثقافي وبين الانفتاح ـ الترجمة تخلق تربة خصبة للإبداع الإنساني .

لقاءات كثيرة مثمرة عقدتها مع هيئة تحرير المجلتين السوفييتين للآداب الأجنبية (إنسترانايا لتراتورا) في موسكو ، و (فسيسفيت ـ العالم) التي تصدر بالأوكرانية في كييف (واللغة الأوكرانية تختلف نسبياً عن اللغة الروسية ولها آدابها الخاصة) .

وقد تبين لي أن سياسة نشر الآداب الأجنبية في الاتحاد السوفييتي تضع الانفتاح شعاراً لها ، وتتجه أكثر فأكثر إلى تغليب معيار الجودة والإبداع على أي معيار آخر ، هناك ثقة عامة بأن الأدب الجيد لا بد أن يكون دافعاً من دوافع العمل والتقدم والقوة والتفاهم الإنساني .

ومن المعروف أن المجلة الموسكوفية للآداب الأجنبية التي تصدر شهرياً تطبع ٥٢٥ ألف نسخة ويبلغ عدد صفحاتها ٢٧٢ صفحة من القطع الكبير ، وتضم ترجمات من آداب مختلف الشعوب بما في ذلك شعوب صغيرة منسية في زوايا أوربا وآسيا وأفريقيا وغيرها . وتتنوع هذه الترجمات بين مقالة وشعر وقصة

وأخبار أدبية وتعليقات . كما تنشر هذه المجلة شهرياً عملاً أدبياً كاملاً في شكل كتـاب جيب يطبـع منـه (٢٠٠ ـ ٢٥٠ ألف نسخـة) . ومن بين الـروايـات العـربيـة التي أُنجـز طبعهـا بالـروسيـة روايـة الكاتب العربي الفلسطيني يحيى يخلف ، كما ينتظـر أن تنجـز طبـاعـة رواية (صخرة الجولان) للكاتب العربي السـوري علي عقلة عرسـان . وتكـاد قائمـة الأعـمال الأدبية التي نشرتها المجلة تشمل معظم البلدان العربية ، وهناك جهود مثمرة لانتقاء أفضل النتاج الأدبي العـربي وتـرجمتـه ، مع عنـايـة خاصـة بالأدب العربي في سورية وتنحو المجلة الأوكرانية (فسيسفيت) المنحى نفسه ، ويبلغ توزيعها ٥٣ ألف نسخة . ومن الأعـمال الأدبيـة العـربية التي تعتز المجلة بنشرها رواية (عرس الزين) للكاتب العـربي السـوداني الطيب صالـح . وقـد وجـدت لدى هيئة تحرير هذه المجلة حماسـة ممتـازة لنشر الأدب العربي وفي الاجتماع المطول الذي عقدته مع الزملاء المسؤ ولين عن أقسام المجلة في كييف بتاريخ ١٥ / ١٢ / ٨٤ ، بدا الاهتمام بالنتـاج الأدبي في سوريـة واضحـاً جداً ، وكـانت في يد الزميل أوليغ ميكيتنكو رئيس التحرير المساعد ، قائمة بأسماء عدد كبير من كتاب القصة في سورية ، وكـان ميكيتنكـو حريصـاً جداً على حسن الانتقـاء ، لأسباب موضوعية تتعلق بعمق التـزامـه بعمله ، ولأسبـاب شخصيـة أيضـاً ، إذ أنـه زار القطـر العربي السـوري قبـل شهـور ، وعقـد صداقات طيبة مع معظم الكتاب الذين التقى بهم ، ومـا زال عبق دمشق يؤنسـه ويثـير فيـه الحب والحنين لسورية . والجدير بالـذكـر أن ابنـه يفجيني مستعرب ، وقد نشر هذا العام ١٩٨٤ مختارات مترجمة عن ألف ليلة وليلة ، ولو كان المجال مجال مذكرات مفصلة لأفضت في الحديث عن حب ميكيتنكو لسورية والعرب ، وعن سماحته وتفتحه ووفائه ، ولكن ذلك له وجهة أخرى أرجو أن تسمح لي الظروف بطرقها في قابل من المناسبات .

إن سيـاسـة النشـر السـوفييتيـة ذكّـرتني بما يجري الحديث عنه في الميدان

وتخطر للإنسان في هذا الصدد خواطر كثيرة من أبرزها أنه في حين ينبغي أن نستمر في إثارة موضوع الغزو الثقافي وتوظيف إمكاناتنا المختلفة لمواجهته ، علينا ألا نسمح أبداً بأن تتخذ هذه الوقاية من الغزو ذريعة للانغلاق أو التقوقع أو التجمد أو الانكفاء المريض على الماضي أو الاقتصار على وصفات فكرية مقنّنة .

ذلك أننا نعيش في قرن من تاريخ العالم أصبح فيه المناخ الثقافي العالمي حقيقة واقعة ومكوناً من مكونات الثقافة المعاصرة لأي شعب حي ، ولا بد لنا من التفريق الواعي بين الغزو الثقافي والانفتاح الثقافي .

وإذا لم نحدّد ذلك بوضوح يُخشى أن يكون كالمنبتّ ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

مسألة أخرى أثارتها في النفس تجربة الانفتاح الثقافي الذي رأيته في الاتحاد السوفييتي وهي صورة (الستار الحديدي) الذي ما زالت الصحافة الغربية تحاول تثبيتها في النفوس . إنني لا أتحدث هنا من قبيل الدفاع عن الاتحاد السوفييتي أو مهاجمة الصحافة الغربية ، فالمعركة الإعلامية بين الطرفين أضخم بكثير من أن تزجّ فيها ملاحظة عابرة . وإنما أود أن أتمنى على بعض الكتاب الذين يكتبون في صحف غربية ذات وزن أن يراعوا الصدق فيما يقدمونه لقرائهم من مادة حول بلدان العالم ، كنا نحن العرب دائماً بعض ضحاياها .

الثقافي العربي هذه الأيام من ضرورة مقاومة الغزو الثقافي .

فمثلاً ، مقالة فرانسيس كنغ التي أشرت إليها في مطلع حديثي عن رحلة موسكو تثير في الذهن أسئلة كثيرة . فها هو وفد من الروائيين الإنكليز يقصد الاتحاد السوفييتي بدعوة منظمة (ماثيو ايفانز ، مارغريت درابل ، في ولدون ، جني ارميتاج ، مايكل هولرويد ، بنيلوب ليفلي) . بعد العودة ينشر فرانسيس كنغ تقريراً في صفحة كاملة من الغارديان البريطانية (٣٠ / ٩ / ١٩٨٤) يفتقد فيها الإنسان أية مادة معقولة بل أية روح طيبة تجاه عالم الآخرين . تتحدث المقالة أولاً عن وقفة المطار على نحو ما ذكرنا في مطلع هذا العرض ، ولكن بطريقة لا تخلو من استفزاز . وماذا بعد ؟ كل ما في الرحلة أنه ثبت للفريق الزائر أن حقائبهم فُتّشت في الفندق . كيف ؟ إن كاتب المقال اكتشف أن غطاء زجاجة مكسور ، لأن الذي حاول فتحه لم يلاحظ ضرورة مراعاة تحريك الغطاء وفقاً لأسهم متعارضة مرسومة على الغطاء ؟؟ وهناك شيء آخر . في أوديسّة ، الميناء الجميل على البحر الأسود ، كان الفريق الإنكليزي يستمتع بالتنزه خارج الفندق . وقد حدث في مرتين اثنتين أن اقترب من كاتب المقالة شخص غامض وحاول تبادل الحديث معه ، ولكن كان يختفي بسرعة ؟؟ وقد حزن فرانسيس كنغ لأن ظروفه لم تسمح له بدعوة هذا الشخص الغامض إلى كأس في بار الفندق ، (كما يفعل الناس في أي بلد آخر في العالم) وعلى حد قوله .

وهذا هو مجمل مضمون التقرير ، ويغلفه كنغ بطابع من الغموض المتعمّد أو (التغميض) ليجعل منه مادة إعلامية مثيرة لا أكثر ، ونحن نعرف كيف يكتب هؤلاء عن بلادنا وعن غيرها . ونتمنى أن تصل موجة الانفتاح الثقافي العالمي إليهم أيضاً ، وهم الذين يعتقدون أنهم الأكثر انفتاحاً وتحرراً .

بقي أخيراً أن ألاحظ أن الترجمة منتعشة جداً في الاتحاد السوفييتي ، ربما

أكثر من أي بلد آخر في الدنيا . إن سياسة نشر الآداب الأجنبية ليست العامل الوحيد في تنشيط الترجمة بل هناك عملية ترجمة ناشطة جداً بين لغات القوميات المختلفة . وكل إنسان قابلته في الوسط الأدبي في موسكو وكييف حدثني عن الترجمة وعن إسهامه فيها .

ويبدو أن الترجمة فرض عين على كل مثقف أو مثقفة هناك . وتسهم الترجمة ، كما هو متوقع ، في بناء أرضية إنسانية غنية يترعرع فيها الإنتاج الأدبي ويزهر ويثمر .

٣ ـ الأدب وأنسنة السياسة

ـ ما أحوج السياسة إلى الأدب والأدب إلى السياسة .
ـ المنطقة العربية كانت دائماً منطقة انفتاح ، فلماذا لا تقدم الإمكانات اللازمة لأدوات هذا الانفتاح .
ـ أربعون محرراً مقابل واحد ، ويتحدثون عن التعاون المتكافىء ؟
ـ الاتصال بآداب العالم ضمانة لإبقاء عملية الإبداع متجددة وبعيدة عن الجمود والتكرار .

في ١٣ / ١٢ / ١٩٨٤ كان الموعد الوحيد الذي لم أوفق في الالتزام به هو موعد اللقاء مع فيدرونكو ، السكرتير العام لاتحاد الكتاب السوفييت ورئيس تحرير مجلة (الآداب الأجنبية) السوفييتية . وهو تقريباً أهم موعد من الناحية الرسمية بالنسبة لطبيعة زيارتي للاتحاد السوفييتي .

فمنـذ الصبـاح تتـابـع علي ذلـك النوع من الملابسات الذي يحدث عادة حينما تكـون لدى الإنسـان اهتـمامـات ذات نوع خاص فتجـري بعكس ما تشتهي السفن . فكأن المقادير تداعب الإنسان ولو من خلال التفصيلات الصغيرة .

وعلى أي حال ، بعد نصف ساعة من الموعد المحدد دخلت بنا السيارة باحـة اتحـاد الـكـتـاب الـسـوفـيـيـت وهـي مغطـاة بالـثـلج والجليد ، فكأنها ببياضها سوداء على حد قول أبي الطيب المتنبي .

دخلنـا واعتـذرنا جداً جداً . وكان اللقاء حاراً ، وكان مع فدرنكو السيد ألكسانـدر كوسوروكـوف ، رئيس لجنـة العـلاقات الخارجية في اتحاد الكتاب السـوفييت . وتحـدثنـا عن مجلتي (الآداب الأجنبيـة ـ انسـترانايا لتراتورا) في الاتحاد السوفييتي وعن مجلتنا في سورية .

وبحثنـا في بعض الخطـط المشتركة وحاولنا تثبيت آفاق التعاون . وأبدى الجـانب السـوفييتي استعـداده لكـل تعاون ومن أي نوع . (بالطبع يرجى من القـارىء الفطـين أن يلاحظ أن كلمة تعاون غير مستعملة هنا في ما وضعت له أصلاً ، وأنها في حالات كثيرة تتخذ طابع التورية) .

على أي حال ، برزت المشكلة حين انتقلنـا من العـام إلى الخـاص . كيف (تتعـاون) أقسام المجلتين ومختلف الاختصاصات فيهما . وغصّ حلقي وحـاولت المـواريـة ، ولكن أمام النقاط الملموسة التي ألقيت على طاولة البحث (لا بساطِهِ) وجدت أنه لا بدّ من الاعتراف بالحقيقة المرة .

في هذه المـرحلة من التعـاون ، أيهـا الأصدقاء لا بد من إبقاء العملية في مسـتوى الخطـوط العـامـة لأنه ليس لدينا أجهزة نظيرة لأجهزتكم في (الآداب الأجنبيـة) . فمقـابـل العـدد الكبـير من المتفـرغين لديكم من أقسام المجلة (أظنه يقارب الأربعين) ليس في مجلتنا أي متفرغ بما في ذلك رئيس التحرير .

ونحن مجرد جسم طفيلي يعيش على سطح اتحاد الكتاب العرب وجهازه . ولذلك نحن مضطرون أن نبقى في حدود مجلة فصلية انتقائية ، ويصعب أن نتحدث معكم عن خطط نوعية للتعاون ، كالتعاون الخاص في مجال الأدب الآسيوي الأفريقي ، أو في مجال الكتاب الشهري الكامل الذي يصدر عن مجلتكم .

* * *

أشياء كثيرة كانت تخطر لي حين كان الجانب السوفييتي يرد على ملاحظاتي بتأكيد الاستعداد للتجاوب مع أي مستوى من التعاون نريده .

شيء واحد فقط أودّ أن أذكره هنا . نحن العرب أبناء منطقة كانت منفتحة دائماً للرياح الثقافية المختلفة ولم يحدث إلا في فترات الاحتلال الأجنبي أن أغلقت الأسوار في وجه ثمرات القرائح الإنسانية . كانت هذه المنطقة دائماً ترسل وتتلقى وتتوسط أيضاً . وكانت مراهنتها الدائمة إلى جانب قضية الثقافة الإنسانية الحية المتفتحة . فلماذا يسبقنا الكثيرون إلى تطوير أجهزتهم المعنية بالتبادل الثقافي ولماذا تبقى مجلة مثل (الآداب الأجنبية) في الحدود الدنيا من الإمكانات .

إن القارىء العربي في سورية وفي غيرها من البلاد العربية يبدي أعظم اهتمام بما تبدعه المواهب الإنسانية في كل مكان من العالم ، وأين نحن من التجاوب مع اهتمامه ؟

* * *

وتركنا التفاصيل وانتقلنا إلى الأحاديث العامة ، وقادنا الحديث إلى الدور الذي لعبه فيدرنكو في الدفاع عن الحق العربي حين كان مندوباً للاتحاد

السوفييتي في مجلس الأمن الدولي ، وهيئة الأمم المتحدة ، وتنهّد الصديق بعمق وكان مما قاله :

« أتصور لو أن هؤلاء العرب الذين يفوق عددهم مئة مليون كانوا موحدين ، كيف تكون قوتهم ، مشكلتنا دائماً هي التمزق العربي » .

ونحن نسمع هذه المناقشة دائماً في الشرق والغرب ، ولدى جميع الذين يتفهمون قضيتنا ، إنهم جميعاً متأكدون أن العرب يشكلون قوة كبر ى حين تتضافر جهودهم ، ولو من خلال الحق الأدنى .

وقادنا الحديث إلى جهود فيدرنكو في حقلي الأدب الصيني والأدب الياباني . وأبدى سروره حين أخبرته أن العدد الجديد من مجلتنا (الآداب الأجنبية) بحمل مراجعة لكتابه عن (كاواباتا ياسوناري) ، ثم أعطاني كتاباً من تأليفه فيه مقالات عن الأدب الصيني وأباح لنا أن نترجم منه أو نقدم مراجعة عنه ، واسم هذا الكتاب (التراث الأدبي الصيني والمعاصرة) ، موسكو ١٩٨١ .

وقال لي : إن موسكو باردة ، ونحن نحب الثلج ونتضايق حين يكون هناك حر ، ربما على عكسكم تماماً . وقلت له : المهم هو مقدرة هذا الإنسان القوي الضعيف على التكيف مع مختلف الظروف من طبيعية واقتصادية وغيرها . وخشيت أن يفهم أنني أبذل جهداً للتكيف مع طبيعة موسكو ، فأردفت :

- إن موسكو باردة من الخارج فقط ، أما من الداخل فهي دافئة .

قال فيدرنكو :

- سرني أنك اكتشفت ذلك بسرعة .

وكان وداعنا حاراً مثلما كان اللقاء .

وقلت في نفسي :

- ما أجمل أن تتعانق إنسانية الأدب مع دينامية العمل السياسي . إن نيكولاي فيدرنكو صورة حية لهذا العناق ، ويا حبذا لو كثر أمثاله لدينا ولدى غيرنا ، إذاً لكان وضع الأدب أفضل ، وربما وضع السياسة أفضل أيضاً إن كان لوضعها من شفاء .

درس آخر خرجت به من مجمل تجربة مجلة (الآداب الأجنبية) في موسكو . مفاده أن أي أدب - مهما كان عظيماً أو عريقاً أو خصباً - لا بد له من التفاعل مع آداب الأمم الأخرى والتلاقح معها . وليس في ذلك ضمانة لحيوية معايير التذوق فحسب بل ضمانة أيضاً لإبقاء عملية الإبداع متجددة ومتحررة من الجمود والتكرار .

٤ - في مجلة (مسائل الأدب)

- أفضل مكان للتفكير ليس الغرف المتأنقة والمكاتب الوثيرة .
- إن الذي يريد أن يفكر ويبدع غير الذي يريد أن يأمر وينهي .
- الأيديولوجيا ليست سيفاً مسلطاً على الفكر والفن والأدب وإنما هي وعاء مرن ومؤشر عمل وضمانة لعدم التسيب .
- لازارف وصدقي إسماعيل ، يخلق من الشبه أربعين .

في الطابق الحادي عشر من بناء قديم ، كله إصلاحات وتعديلات وترقيعات ، بعضها مما لا يصلحه عطار ولا يعيد إليه الشباب نافخ نار ، في هذا

الطابق الذي يصل إليه الإنسان عن طريق مصعَدين يكمل أحدهما الآخر ، كما يكمل (القاموس المحيط) شرح (تاج العروس) ، يقع بناء مجلة من أهم المجلات في العالم الأدبي وهي مجلة (مسائل الأدب). مررنا من خلال الدهاليز ، والأبواب القديمة ، والأروقة غير العريضة ، دع عنك المصعد الذي يتنفس الصعداء كلما تجاوز طابقاً إلى طابق آخر ، أو طبقاً إلى طبق ، كما ينبغي أن نقول بلغة الأوائل . وفي أثناء ذلك كان يخطر لي خاطران أن يتناوبان على صاحة الوعي ويحجبان عني فرصة التفكير فيما ينبغي عليّ أن أقوله في هذا اللقاء الذي تهيبته أكثر من لقاء (الكبار) و (المسؤولين) و (ذوي الرتب) :

الخاطر الأول : أن مجلة تبحث في (مسائل الأدب) المتعرجة وفي (نظريات النقد الأدبي) المتشابكة ، وفي (مصير التنظير الأدبي) ودوره غير الواضح ، لا بد أن تكون في مثل هذا المكان الغريب الذي يحمل طابع العَزلة ، ويساعد على الانقطاع للفكر والنظر والتأمل .

الخاطر الثاني : أن أفضل مكان للتفكير السليم ليس المكاتب الأنيقة والغرف المجهزة بأحدث المفروشات وبأجمل أشكال الهواتف . إن الذي يريد أن يفكر غير الذي يريد أن يأمر وينهى . ومن أسف أن كل الحجج التي تقدم عندنا للاعتذار عن ضآلة ما يجري من تفكير هي من نوع أن المكتب غير مجهّز ، وأن الطاولة صغيرة وأن الهاتف غير شغّال . وقد تكررت في ذهني هذه الخاطرة عدة مرات ، حين كنت أدخل مكاتب مجلة (الآداب الأجنبية) السوفييتية ، أو اتحاد الكتاب السوفييت أو غير ذلك . وكثيراً ما تذكرت إذ ذاك مركز أبحاث الشرق الأوسط في جامعة كامبردج الذي يقبع في حارة عتيقة وفي مبنى صغير لا يكاد يملأ العين ، شأنه في ذلك شأن أبنية كثيرة للمعاهد والمكتبات والدوائر في كل مكان من بلدان العالم التي تفكر ، كما كنت أتذكر دائماً دهاليز محكمة فرانزكافكا الغريبة .

على أية حال ، دخلنا إدارة المجلة . كان كل شيء بسيطاً طبيعياً ، كأن المرء في منزل عتيق لشاعر لا يبالي بالمظاهر . وجلسنا مع رئيس التحرير ومساعدتيه اللطيفتين ، بعدئذ انضم إلينا أحد المختصين في الأدب الأمريكي في قسم الآداب الأجنبية في كلية اللغات بجامعة موسكو .

كان الحديث أصيلاً وعميقاً وشيِّقاً وبعيداً عن الشكليات . وتبينّ لي كما حدث في كل لقاءاتي ، أن الفكر في الاتحاد السوفييتي يتجه إلى التفتح أكثر فأكثر ، وأن مسائل النظرية الأدبية تعالج من خلال أحدث معطيات الفكر الأدبي في الغرب والشرق ، وأنه لا توجد هناك محرّمات في مجال الإبداع ، وأن هناك سعياً جاداً لئلا تكون الأيديولوجيا سيفاً مسلطاً على الفكر والفن والأدب ، فهي عند الكثيرين ولا سيما من الفئات الشابة المتطلعة ـ وعاء مرن ومؤشرات عمل وضمانة لعدم التسيُّب في مجال كل ما فيه يغري بالتسيُّب ويشدُّ الإنسان من موجة إلى موجة .

وتبينّ لي ـ كما كنت أتوقع ـ أن مشكلة العلاقة بين النظرية والإبداع ، وبين الوعي المسبق والتلقائية وبين الإعداد والفيض العفوي ، هذه المشكلة أبدية وليس لها حل ، وإن كان ممكناً تخفيف آثارها السلبية بخلق جو شبه طبيعي من التبادل والحوار والصراحة بين (حدودها) المختلفة .

كما اتضح لي أن أزمة الناقد في مواجهة الأديب وأزمة الأدب في تقبل الناقد ، ستبقى كما هو متوقع موضع أخذ ورد على المدى المنظور وغير المنظور .

وإن كانوا في الاتحاد السوفييتي ـ على ما فهمت قد توصلوا إلى تخفيف الحدّة بين (اندفاعة) الأديب و (تربُّصية الناقد) ، ولا سيما من خلال اللقاءات المشتركة على ملأ من جمهرة القراء الذين يشاركون في تذوق الأعمال الأدبية وانتقادها وتقييمها ، والذين يحسب لهم المؤلفون أكبر حساب .

وحين رويت لهم جوانب من انتفاضيات الأدباء عندنا في وجه النقاد ، وحين ذكرتهم بما يجري أيضاً خارج حدود بلادنا من إنكار لدور النقد في الأوساط الأدبية (ذكّرتهم مثلاً بالمقالة المعروفة عن وليم فوكنر التي تحمل العنوان المثير التالي : (كاتب كبير رغم أنف النقاد) ، حين ذكرت ذلك أفادوا ـ كما هو متوقع ـ أنهم يشعرون جيداً بخطورة هذه المشكلة ، ولكنهم يعالجونها بروح طيبة ، وهم غير يائسين من النتائج .

* * *

وكانت الروح الطيبة تعطر كل كلمة تبادلنا وكل مناقشة أجريناها . وإن أنسَ ـ لاأنسى ـ أن الكاتبة يفجينيا كاتوفا ، نائبة رئيس التحرير ، حين استمعت إلى الشرح المطول الذي قدمه رئيس التحرير في الجلسة عن مجلته ، قاطعته قائلة : « الحمد لله أنني أعرف الآن شيئاً عن هذه المجلة التي أعمل فيها منذ أكثر من عشرين عاماً » ، فهل كانت تلك محاولة للفت نظر رئيس التحرير المتحمس إلى أنه أطال في الحديث وأفاض ؟

ودّعت هؤلاء القوم الصامتين الناطقين ، وفي نفسي لهفة لأن أبقى معهم أطول وقت ممكن ، فمع مثلهم يحلو قراع الأفكار .

من هؤلاء يتعلم الإنسان كثيراً ، ولكن أبرز ما يتعلمه هو أن الفكر يحتاج إلى إخلاص داخلي ، وأن أكثر ما يسمم الفكر هو التظاهرية واستعراض العضلات .

ولا أدري لماذا حين كان يتكلم لازاريف ، كانت باصرتي ترى في وجهه من حين لآخر هدوء وجه طالما كان حبيباً إلى النفس وأليفاً ، هو وجه المرحوم صدقي إسماعيل ، وحتى رنّة صوته وسلاسة منطقه وصواب حجته ، كل ذلك كان يذكر بصدقي في أخريات أيامه .

وحين خرجنا من البناء المتداخل مثل تلافيف دماغ ، سألت مرافقي السوفييتي : هل هؤلاء القوم المفكرون (منسيون) كما يوحي مقرهم في الطابق الحادي عشر من الدار العتيقة ؟

وقال ميخائيل : بالعكس ، هؤلاء الناس محترمون ولهم تأثير ملموس ، ولهم وزنهم المعترف به وحسابهم المحسوب .

وفيما بعد فهمت أن أهل الفكر والنظر ، ولا سيما المشتغلين بقضايا الأيديولوجيا والتنظير الأدبي والفني والنقدي ، يحتلون مكاناً بارزاً في المجتمع الثقافي السوفييتي ، كما أن الاهتمام بالآداب والفنون يستند إلى تاريخ عريق يدعمه واقع اجتماعي واضح الاتجاه ، وقد قال لي محقاً أحد الأصدقاء الذين درسوا في موسكو وتخرجوا في معهد من أرفع معاهدها : إن مكانة المفكر والمنظّر والأديب والفنان في المجتمع السوفييتي تعادل بنسبة تكثر أو تقل مكانة التكنولوجي والمختص العلمي في مجتمع مثل المجتمع الأمريكي .

إن معرفتي المحدودة بالمجتمع السوفييتي لا تسمح لي بمزيد من التعليق حول هذه النقطة ، ولكن هوى المرء الطبيعي أن يبقى دائماً مع تلك المجتمعات التي لم تقدم بعد على حشر الأدب والفن والنظر في زاوية شبه معتمة ، لتفسح مجال الصدارة للتخصص العلمي والتكنولوجيا .

ملحق

حياة نيقولاي فيدورنكو في سطور

ولـد في بيـاتيغورسك عام ١٩١٢ ، وهو كاتب ولغوي ومستشرق وأستاذ جامعي ، وعضو مراسل في أكاديمية الاتحاد السوفييتي للعلوم ، وعضو شرف في معهد العلوم الصينية في طوكيو ، وعضو في أكاديمية فلورنسا للفنون .

عمـل نائبـاً لوزيـر الخـارجيـة السوفييتية ، ومندوباً لبلاده في هيئة الأمم ومجلس الأمن الدولي وسفيراً في عدة بلدان منها اليابان ، ويحمل رتبة مبعوث خاص .

يعمل الآن أميناً عاماً لهيئة رئاسة اتحاد الكتاب السوفييت ، ورئيس تحرير لمجلة (الآداب الأجنبية) . له مؤلفات عديدة منها :

- مقالة حول الأدب الصيني الحديث ، ١٩٥٣
- الأدب الصيني ، مقالات حول تاريخ الأدب الصيني ، ١٩٥٦
- أرض الصين وأساطيرها ، ١٩٦١
- ألوان الزمن ، ملامح من الفن الصيني ، ١٩٧٢
- ملاحظات حول اليابان ، ١٩٧٤
- مشكلات دراسة الأدب الياباني ، ١٩٧٨
- الذاكرة القديمة للأدب الصيني ، ١٩٧٨
- كاواباتا ياسوناري ، ١٩٧٨

ولـه عدة مؤلفـات أخـرى وبحـوث تصـل في مجموعتها إلى مئتي دراسة معظمها مخصص لتاريخ الثقافة في الصين واليابان وللمسائل النظرية العامة في الأدب والفن .

أخبار أدبيّة من العالم

● إعداد: عيسى فتوح

منحت فرنسا الكاتب والروائي الإيطالي ألبرتو مورافيا وسام فيلق الشرف تقديراً لاهتمامه الدائم بشؤون الثقافة الفرنسية . والجدير بالذكر أن مورافيا قد جاوز الثمانين ، وأمد المكتبة العالمية بعشرات الروايات التي لقيت انتشاراً في كل مكان . وترجم بعضها إلى اللغة العربية مثل : السأم ، والاحتقار ، وامرأة من روما . . . كما منحه الحزب الشيوعي الإيطالي مؤخراً شرف العضوية الفخرية في الحزب ، وفي السنوات الأخيرة أظن مورافيا اهتماماً شديداً بالثورة الفلسطينية وبمأساة الشعب العربي الفلسطيني وكان من أبرز دعاة الحق العربي في فلسطين .

فوز الشاعر التشيكي ياروسلاف سيفيرت

بجائزة نوبل للآداب

منحت الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٤ للشاعر التشيكي ياروسلاف سيفيرت البالغ من العمر ٨٣ عاماً تقديراً « لشعره الذي يعطي الإنسانية الطموحة على اختلافها صورة تحررية بفضل حساسيته المرهفة وخياله الواسع » .

ولد ياروسلاف سيفيرت في براغ في ٢٣ أيلول ١٩٠١ وعمل في الصحافة حتى عام ١٩٥٠ ثم تفرغ للشعر . وقد عبر في أول مؤلف له ، وهو « مدينة تبكي » الذي أهداه إلى الطبقة العاملة التشيكية ، عن تجارب شبابه بأبيات تنطوي على المضمون الاجتماعي المبسّط ، وهي مستوحاة من الشعر الشعبي .

ثم اتصل بالتيارات الأدبية الحديثة ، وظهر تأثير ذلك في ديوانه « على موجات الأثير » ١٩٢٥ .

ونشر سيفيرت في الثلاثينات مؤلفات تميل إلى الكلاسيّة ، وتقترب من لهجة الأغاني المألوفة ، وانتخب بعد أحداث براغ ١٩٦٩ رئيساً لاتحاد الكتاب ، وهو التاريخ الذي طالب فيه آراغون ورومان جاكابسون بمنحه جائزة نوبل ، ولكنه لم يحصل عليها إلا مؤخراً .

ظل سيفيرت رئيساً لاتحاد الكتاب التشيكيين حتى سنة ١٩٧٢ ، وفي سنة ١٩٧٩ صدرت له مجموعة شعرية بعنوان « مظلة بيكاديللي » كما أصدر سنة ١٩٨١ مجموعة بعنوان « النصب التذكاري للطاعون » . وفي العام الماضي صدرت في براغ مذكراته بعنوان « العالم بكل جماله » ، وبعض أعماله مترجمة إلى الألمانية والإنكليزية والفرنسية . . . وسيفيرت أول تشيكي ينال جائزة نوبل للآداب منذ إنشائها سنة ١٩٠١ ، وثاني تشيكي ينال جائزة نوبل بعد مواطنه ياروسلاف هيروفسكي الذي نال جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٥٩ .

مؤتمر الشعر العالمي ودور الإبداع فيه

عقد في مدينة مراكش بالمغرب المؤتمر الدولي السابع للشعر ، وشارك فيه

شعراء من أفريقيا وآسيا وأوروبا ، حيث دار نقاش بين الشعـ ل الثقافات ودور الإبـداع في التنميـة ، والشعر في حوض البحر الأبيض . . والجدير بالـذكـر أن المؤتمـر الأول للشعر عقد في مانيلا عاصمة الفيليبين عام ١٩٦٨ ، والثـاني في الصـين عام ١٩٧٣ ، والثـالث في الـولايـات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦ ، والـرابـع في سيؤ ول عاصمة كوريا الجنوبية عام ١٩٧٩ ، والخامس بسـان فرانسيسكـو بالـولايات المتحدة عام ١٩٨١ والسادس في مدريد بإسبانيا عام ١٩٨٣ .

جوائز لوتس لعام ١٩٨٤

كرست سكـرتـارية رابطة كتاب آسيا وأفريقيا التي تضم أدباء أربعة عشر بلداً جلستهـا في موسكـو لتحـديـد أسماء الفائزين بجوائز لوتس لعام ١٩٨٤ ، وأعلن الشـاعـر المصـري عبـد الـرحمن الخميسي رئيس لجنة التحكيم عن منح جوائز الرابطة لأربعة أدباء من السنغال وأفغانستان والجزائر وسيرلانكا .

وتمنح الرابطة هذه الجائزة الأدبية الدولية كل سنة ابتداء من عام ١٩٦٩ لأصحـاب أفضـل النتـاجـات التي تعكس أفكـار السلام والإنسانية والصداقة والتعـاون بين الشعـوب . وبـين الفـائـزين أدبـاء مشهـورون وناشئون ، منهم الشـاعـر والنـاشر والكـاتب المسـرحي السنغـالي جان بربيبر أحد أعلام الأدب الأفـريقي الآسيـوي وأحد المشاركين القدماء في حركة أدباء القارتين ، وسليمان محمـد لايق أحـد أشهـر الشعـراء الأفغانيين ، رجل الدولة والعلم ، وهورئيس أكـاديميـة العلوم الأفغـانية ووزير شؤ ون الأقليات القومية والقبائل . ومنحت جائزتان تشجيعيتان للشاعر والكاتب السيرلانكي كاروناتيلاكا البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً ، وزميله الجزائري عمر أزراج .

السلام أمل العالم

عقد في العاصمة البلغارية (صوفيا) مؤتمر لكتاب مختلف بلدان العالم تحت شعار (السلام أمل العالم) ، وهو المؤتمر الخامس من هذا النوع ، وتتبع لقاءات صوفيا تقليد المؤتمرات المناهضة للحرب التي كان يعقدها رجال الثقافة في الثلاثينات في برشلونة ومدريد وباريس .

وقد اجتمع في صوفيا أكثر من مئة وعشرين كاتباً من أربعين بلداً منهم أرسكين كالدويل ، ويانيس ريتسوس ، وجنكيز ايتماتوف ، وأمريتا بريتام ، وارفي بازن . .

وفاة الشاعر الأندلسي فيسانتي اليساندري

١٨٩٨ - ١٩٨٤

توفي مؤخراً في العاصمة الإسبانية مدريد الشاعر الأندلسي فيسانتي اليساندري عن ستة وثمانين عاماً ، وكان هو والشاعر رفائيل البيرثي وداماسو الونسو آخر من بقي على قيد الحياة من جيل الـ ٢٧ الذي كان يضم كلاً من : غارثيالوركا ، وبيدروساليناس ، ولويس ثرنودا ، وداماسو ألونسو ، وميغيل هرناندث ، وخورخي غيين .

للشاعر عدة دواوين منها : تدمير الحب ١٩٣٢ ، عالم متوحد ١٩٣٦ ، ظل الفردوس الذي أثار جدلاً واسعاً في الأوساط الإسبانية وغير الإسبانية ، والولادة الأخيرة ١٩٥٣ ، وحكاية القلب ، وقد كتب هذه المجموعة في ثماني

يمتاز شعر فيسانتي اليساندري بغنائية مفرطة ، رف كيف يعري قصيدته للطبيعة الأندلسية الجميلة ، وللروح الأندلسية ، وللبيئة الأندلسية .

نال اليساندري جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٧ .

معرض كبير للكتاب في برشلونه

افتتح في مدينة برشلونة المعرض الثاني (ليبير ١٩٨٤) الخاص بدور النشر والطباعة في إسبانيا ، وترأس حفل الافتتاح رئيس نظام الحكم الذاتي (جودي بوجول) ووزير الثقافة خافيير سولانا ، وعمدة المدينة ، وقد شغل المعرض مساحة ٧٧٠٠ م٢ واشترك فيه ستة آلاف دار للنشر تنتمي إلى ثلاثين دولة ، وتعتبر برشلونة أول مركز لصناعة الكتب الناطقة بالإسبانية . . . أشار وزير الثقافة في الكلمة التي ألقاها بتلك المناسبة إلى أنه لن تتم الموافقة على حقوق المؤلف إلا بعد أن يتم التفاهم بين الناشرين وباعة الكتب .

أقيمت خلال المعرض عدة ندوات لمناقشة مدى تأثير الفيديو والصحافة على الكتاب والأدب .

الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس

يزور إشبيلية

تحدث الكاتب الأرجنتيني الضرير خورخي لويس بورخيس في حفل تدشين فصل الدراسة حول الأدب الخيالي الذي نظمته دار النشر (سير ويلا)

في الجامعة الدولية (مينينديث بيلايو) في اشبيلية ، وقد غصت القاعة بالمستمعين الذين حضروا للاستماع إلى هذا المتحدث البارع .

قال بورخيس في معرض حديثه أن الكتابة تعتبر حلماً مخلصاً ، ولا يمكن للكاتب أن يقوم بمهمته على أحسن وجه إذا لم يعتقد ويقتنع بالأسطورة ، والكتابة تتم رغم أنف الكلمات .

ثم تحدث عن الإلهام فقال : قبل أن أكتب لا بد أن أشعر بإحساس يملي علي ما يريد ، وعندئذ فقط أبدأ الكتابة . . . إن المهم في الأدب يكمن في المقدرة على إعطاء أفكار جديدة ، وكلما كان الأدب غير محدد المعالم كلما ابتعد عن المؤلف وشخصيته . . . إن الكتابة هي مسألة تفكير وسماع ، فالمهم هو الإيقاع في العبارات ، وهذا هو سبب صعوبة ترجمة الأدب إلى لغات أخرى ! أما بالنسبة للمرأة فقال : « إنها دائماً حاضرة في حياتي ، وأحياناً أهرب منها عن طريق شغل وقتي بالكتابة إلا أنني لا أحقق هدفي . . . هناك شيء واحد في الأرض لا يمكن التغلب عليه ، ألا وهو النسيان . . » . وقال عن المجد الأدبي أنه خطأ جسيم .

وفاة الشاعر الباكستاني

فايز أحمد فايز

توفي في الباكستان الشاعر المعروف فايز أحمد فايز عن ٧٣ عاماً إثر إصابته بنوبة قلبية ، وكان شاعر باكستان الأول الذي يعرفه جيداً قراء مجلة (اللوتس) التي تصدر عن اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا ، وقد زار سورية عدة مرات .

فاز الشاعر بعدة جوائز منها جائزة لينين للسلام ، وكتب شعره بالأوردية والإنكليزية . والجدير بالذكر أن (الآداب الأجنبية) كانت قد نشرت بعض قصائد لفايز من ترجمة الدكتور حسام الخطيب ، رئيس التحرير ، بعنوان (تألقات في دمشق) ، ع ٣٢ ، س ٩ ، آب ١٩٨٢ .

سنغور رئيساً لجمعية المؤلفين

انتخب الرئيس السنغالي السابق والشاعر العالمي المعروف ليوبولد سنغور رئيساً للاتحاد الدولي لجمعيات المؤلفين والملحنين ، وهو الاتحاد الذي عقد مؤتمره العالمي في طوكيو من ١٢ ـ ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤ .

جائزة دولية للسلام

تقديراً ووفاء لدور أنديرا غاندي التاريخي في حياة الهند ، قررت الحكومة الهندية إنشاء جائزة دولية للسلام تحمل اسم السيدة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء السابقة التي اغتالتها يد التطرف والتعصب في تشرين الثاني عام ١٩٨٤ ، وسوف تمنح هذه الجائزة لمن يعمل في خدمة السلام في أي جزء من العالم .

وفاة الكاتب الإيطالي ادواردو دي فيليو

توفي في روما الكاتب والممثل المسرحي ادواردو دي فيليو الذي يعد من

اشهر الممثلين وكتاب المسرح في إيطاليا عن ثمانيه واربعين عاما . من مسرحياته : عيد الأشباح ، عيد الميلاد في بيت كوبيللو ، عائلتي الأشباح ، وقد اقتبست بعض مسرحياته إلى اللغة العربية . ونظراً لتأثيره الكبير في الجمهور فقد كان اختاره الرئيس الإيطالي عام ١٩٨١ ليكون عضواً في مجلس الشيوخ مدى الحياة .

ظهر فيليو على المسرح لأول مرة عندما كان في الرابعة من عمره ، ولم يتوقف عنه خلال فترة دراسته ، ويغلب على مسرحياته تصوير الحياة اليومية في نابولي ، ومن أشهر مسرحياته مسرحية (فيلومينا مارتيرانو) .

قصائد عربية بالإيطالية

صدر في مدينة ميلانو أول مجموعة من الشعر العربي باللغة الإيطالية بعنوان (أبكي أرضي) للشاعر الفلسطيني الطبيب خليل مصطفى الذي يقيم في إيطاليا منذ خمس عشرة سنة . كتب مقدمة المجموعة المترجمة وزير الخارجية الإيطالي جوليو اندريوتي .

كتاب بالروسية عن الشعر العربي

صدر في موسكو كتاب (التركيب اللغوي للشعر الغنائي العربي) تأليف المستشرقة رادلغابا باريسفانا فرلوفا .

وفاة الشاعر الفرنسي هنري ميشو

توفي في باريس الشاعر والرسام الفرنسي هنري ميشو عن ٨٥ عاماً ، وكان قد ولد في بلدة نامور ببلجيكا عام ١٨٩٩ وتجنس بالجنسية الفرنسية عام

١٩٥٤ ، وهو اخر شعراء فرنسا الكبار .

مارس في حياته عدة أعمال ، إلا أنه ركز أخيراً على الشعر والرسم ، نال عام ١٩٦٥ الجائزة الكبرى للآداب إلا أنه رفض استلامها .

جائزة ألمانية للشاعر المكسيكي أوكتافيوباث

حصل الشاعر المكسيكي أوكتافيوباث على جائزة السلام من جمهورية ألمانيا الاتحادية وذلك بمناسبة افتتاح معرض الكتاب في فرانكفورت الذي يتخذ شعار (الأدب أفضل حوار عالمي عبر التاريخ) .

يعتبر أوكتافيوباث (٧٠ سنة) أفضل شاعر وروائي في المكسيك ، وقد عمل في السلك الديبلوماسي ، ومن أشهر أعماله (المنطق العنيف) .

معرض للكتب في بلغراد بيوغسلافيا

أقيمت في بلغراد الدورة التاسعة والعشرون للمعرض العالمي للكتب بمشاركة خمس وخمسين دولة ، وقد تم خلال هذه الدورة إقامة معارض متخصصة للكتب بأنواعها الصغيرة ، وكتب الجيب ، وكذلك المجلات ، وهناك جائزة تمنح في نهاية الدورة تسمى (جائزة بلغراد) منحت عام ١٩٨٤ لموسوعتين هما : موسوعة الفن الفطري ، والموسوعة الاقتصادية .

وذهب إلى يوغوسلافيا ، ولكنّه بعد أسبوعين قيل له أنّ عليه أن يدرس اللاتينية ، فقرّر الانتقال إلى إيطاليا حيث يوجد له ابن عمّ . وبدلاً من الدراسة ، أضاع السنوات الأولى في التجوّل في إيطاليا وفي بلدان غربيّة أخرى .

قصص صادرة

عن اتحاد الكتاب العرب

* خان الورد	وليد إخلاصي
* اليافاوي	زكريا شريقي
* مقصد العاصي	أديب نحوي
* الطيور	محسن يوسف
* ليس في القمر فقراء	طالب عمران
* التوغل في عمق الغابة	ضياء قصبجي
* كيف عبر طائر الفينيقس البحر المتوسط	الزاوي أمين

نداء الى كتابنا الاعزاء

تعتذر إدارة المجلة عن التأخير في صدور هذا العدد الثاني والأربعين الذي حالت ظروف مطبعة الاتحاد دون صدوره في إبانه . وتأمل أن تنتظم الطباعة من الآن فصاعداً .

وتود إدارة المجلة أن تبلغ القراء الأعزاء أن العدد التالي (الثالث والأربعين) سيكون مخصصاً للأدب الصيني ، وهو الآن قيد الطباعة .

وفي خطة المجلة للأعداد القادمة عدد خاص عن أدب المرأة في العالم المعاصر ، أي الأدب الذي تكتبه النساء . كذلك يجري إعداد ملف خاص عن الأدب الأسترالي .

وعلى نحو ما أعلنّا دائماً في افتتاحيات الأعداد المتتالية ، فإن المجلة ترحب بكل إسهام جاد من قبل الكتاب المؤهلين داخل القطر العربي السوري وخارجه ؛ كما ترحب بملاحظات القراء وتعليقاتهم ومقترحاتهم .

ونظراً لظروف الطباعة ، وللتأخر الذي يحصل من حين لآخر ، فإننا من الآن فصاعداً سنقوم بإبلاغ كل كاتب عن مصير المقال الذي يرسله للمجلة وعن الموعد المنتظر لصدور مقاله في حالة القبول . ونرجو من الأخوة الكتاب والقراء أن يعذروا ظروف المجلة من خلال سعة صدورهم وحرصهم على دفع المجلة باضطراد الى الأفضل والأمتع والأعمق .

رئيس التحرير

يصدر قريباً
عن اتحاد الكتاب العرب

حكايات الملوك والرعاة	قصص أطفال	ليلى صايا
ديوان الحريري	شعر	محمد الحريري
النزوع الواقعي في الرواية الجزائرية	دراسة	واسيني الاعرج
عشرون قصيدة من الشعر البلغاري المعاصر	شعر	ترجمة ميخائيل عيد
النول والمخمل	دراسة	حنا عبود
مازالوا الواحة	شعر أطفال	سليمان العيسى
للعين طعم الانطفاء	شعر	فؤاد كحل
باب الجمر	رواية	وليد إخلاصي
هزائم مبكرة	رواية	نبيل سليمان
الحكايا الساحرة	دراسة	عبدالرزاق جعفر
في النقد والادب	دراسة	محمد روحي الفيصل
ماء للقتلى	شعر	صالح درويش
باسمك ايها الحب	شعر	سعيد قندقجي
الغروب الاخير	رواية	نادرة بركات الحفار
الخندق	رواية	وليد الحافظ

CONTENTS

AL-ÁDÁB AL-AJNABIYYA

(Foreign Literature Quarterly)

No. 42 (vol. 12) Summer 1985

Arab Writers Union — Damascus, Syria